قضايا ثقافية معاصرة

إعداد

د . أحمد بن عبد العزيز الحليبي

أستاذ الثقافة الإسلامية بكلية الآداب

جامعة الملك فيصل

العام الجامعي

عام 1431هـ/ 1432هـ

القضية الأولى : الوسطية

معنى الوسطية :

في اللغة : الوسطية من الوسط ، وهو ما يكون في الماديات بين طرفين متساويين في القدر والمسافة ، وفي المعنويات ما بين صفتين مذمومتين ، مثل الاعتدال في الإنفاق بين البخل والإسراف ، ومثل الشجاعة بين التهور والجبن(١) .

وتعني أيضا الاعتدال ، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير : ﴿ وَسَطًا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣ أنه قال : (عدلا)(٢)، وتعني كذلك الخيار والأفضل ، قال ابن كثير في تفسير الآية : (الوسط ههنا الخيار والأجود)(٣) ، وفي الحديث : (خير الأمور أوسطها)(٤) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا في قومه ، أي أشرفهم نسبا ، ومنه الصلاة الوسطى ، أي أفضل الصلوات(٥).

ويتبين من هذه المعاني أن الوسطية تعني الاعتدال بحيث لا يطغى جانب على جانب ، ولا يحدث إفراط ولا تفريط(٦).

الوسطية من خصائص الإسلام :

من حكمة الله تعالى أن جعل الوسطية شعارا للأمة الإسلامية التي هي آخر الأمم ، وصفة لرسالة الإسلام التي ختم الله بها الرسالات ، وبعث بها محمدا خاتم أنبيائه رسولا للناس جميعا ، ورحمة للعالمين (٧) ،

---

(١) معجم الوسيط/1031 .

(٢) رواه أحمد ، المسند 9/3 .

(٣) تفسير ابن كثير 190/1 .

(٤) رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ لغداد بسند فيه مجهول عن علي رضي الله عنه مرفوعا ، قال ابن الغرس : الحديث ضعيف . كشف الخفاء للعجلوني 469/1.

(٥) تفسير ابن كثير 190/1 .

(٦) الحوار مع أهل الكتاب لخالد القاسم / 33 .

(٧) الخصائص العامة للإسلام ليوسف القرضاوي /122 .

وقد اتصف الإسلام باعتدال منهجه بين مناهج الأديان الأخرى إذ سلمت عقائده وأحكامه وأخلاقه من الغلو والتقصير .

ووسطية الأمة الإسلامية التي دل عليها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣ ، تقتضي اتصافها بالصفات الآتية :

١. صفة العدل التي هي ضرورة لقبول شهادة الشاهد فضلا عن قبول شهادتها على الأمم الأخرى.

٢. صفة الاستقامة التي هي البعد عن الميل والانحراف ؛ لذا وصف الله تعالى دين هذه الأمة وهو الإسلام بالصراط المستقيم ، وهو الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد ، وقد هدى الله إليه الأمة الإسلامية بين الأمم التي سلكت الطرق المنحرفة(٨)، قال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: 6 - ٧ .

٣. صفة الخيرية التي هي مظهر التفضيل الذي أخرجت بها الأمة الإسلامية للناس ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠ .

مظاهر الوسطية في الإسلام :

١. مظهر الوسطية في الاعتقاد : تقع عقيدة الإسلام في موقع الوسط بين انحراف المنحرفين من أهل الأديان وأهل الأهواء ، يقول ابن تيمية : (المسلمون وسط في التوحيد بين اليهود والنصارى ؛ فاليهود تصف الرب بصفات النقص التي يختص بها المخلوق لما قالوا : إنه بخيل ، وإنه فقير ، وإنه لما خلق السموات والأرض تعب ، والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها وحده ، ويشبهون المخلوق بالخالق لما قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) (٩)، وكذلك الحال في النبوات ؛ فإن المسلمين وسط بين اليهود والنصارى ؛ (فاليهود تقتل بعض الأنبياء ، وتستكبر على اتّباعهم ، وتكذبهم وتتهمهم ، والنصارى يجعلون من ليس بنبي ولا رسول نبيا ورسولا ، كما يقولون في الحواريين إنهم رسل ؛ بل يطيعون أحبارهم ورهبانهم كما تطاع الأنبياء)(١٠)

---

(٨) تفسير أبي السعود 133/1.

(٩) منهاج السنة 168/5 .

(١٠) منهاج السنة 169/5 .

والمسلمون يصفون الله تعالى بصفات الكمال ، ويتزهونه سبحانه عن صفات المخلوقين ، ولا يغلون في نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فيرفعونه إلى درجة الألوهية ، ولا في أصحابه رضي الله عنهم فيرفعونهم إلى درجة الرسل كما فعلت النصارى ، وإنما يؤمنون برسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فيتبعونه ولا يغلون فيه ، اجتنابا لما نهاهم عنه في قوله : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله)(١١) ، كما يعرفون لأصحابه رضي الله عنهم قدرهم ، ويعطونهم حقهم من غير غلو فيهم ، ولا حط من شأنهم .

كما أن عقيدة الإسلام وسط بين عقيدة الخرافيين الذين يصدقون بكل شيء من غير برهان ، وبين الماديين الملحدين الذين ينكرون الغيب دون استماع لنداء الفطرة ، ولا نداء العقل ، ولا تسليم بدلالة المعجزة ، ذلك أن عقيدة الإسلام تقوم على الدليل القاطع والحجة الصحيحة ، وما عدا ذلك ترفضه ، وتعده من الأوهام(١٢)استنادا إلى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١ .

٢. مظهر الوسطية في العبادة : يتصف فرض العبادات في الإسلام بين الأديان بأنه عدل في منهجه من غير إفراط ولا تفريط ، ووسط بين الشدة واللين ؛ إذ يجد فيها المسلم ما يصلح حاله في معاشه ومعاده ، ويستجمع منها خير دنياه وآخرته ، فإن (كل من تأمل سنن الأديان في أقامة الشريعة ، واعتبر وصفها بحسب الكمية والكيفية علم أنه لا سنة فيها أحسن في مقتضى العقل من سنة أهل الإسلام ؛ أما من جهة الكمية فلأنه لم يطل فيمل كصوم الرهبان من النصارى والصديقين من الثنوية وعبدة الأصنام ، ولم يقصر فيقل كصوم المجوس ؛ إذ هو ليس بصيام على الحقيقة ، أما من جهة الكيفية فإنه لم يجعله كصوم النصارى والثنوية الذين يعتقدون معه تحريم اللحمان ، ويسلطون على أنفسهم النحول كصوم اليهود المتفرق في أيام السنة على صورة لا يوجد لها نظام مستقر ، ولا تعرف أوقاتها إلا خصائص علمائها (١٣) ، وهذا خلاف ما فرض الله تعالى من عبادات صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ؛ فإن من تأملها وجدها في طاقة الإنسان وقدرته ، يؤديها المسلم في يسر من غير حرج ولا مشقة وفق ما أراد الله تعالى لهذه الأمة من تيسير ورفع للحرج والمشقة ، قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ

---

(١١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ .

(١٢) الخصائص العامة للإسلام ليوسف القرضاوي /127 .

(١٣) الإعلام في مناقب الإسلام لأبي الحسن محمد العامري/142 .

فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة: ١٨٥ ،وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الحج: ٧٨ ، كما يؤدي المسلم هذه العبادات عن علم وبصيرة وفق ما نزل به القرآن الكريم ، وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تكلف ولا ابتداع خلافا للنصارى الذي عبدوا الله ببدع ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ، وخلافا لليهود الذين أعرضوا عن العبادات حتى في يوم السبت الذي أمرهم الله تعالى أن يتفرغوا فيه لعبادته سبحانه(١٤).

وكذلك الحال في عبادة أهل الأهواء الذين أضافوا من الرسوم والشعائر ما لم يشرعه الله تعالى ، كما أعفوا أنفسهم من أداء بعض الواجبات والفرائض دون رخصة أو عذر ، فكان في ذلك ضلال عن اتباع منهج الهداية ؛ خلافا لأهل الحق الذين اتبعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم وتمسكوا بسنته ، ورأوا في الزيادة أو النقصان ابتداعا في الدين ما كتبه الله عليهم امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار)(١٥) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)(١٦).

٣. مظهر الوسطية في الأخلاق والآداب : فإنها في الإسلام وسط بين الغلاة الذين تخيلوا الإنسان ملاكا معصوما من الخطأ ، وبين الواقعيين الذين تصورا الإنسان حيوانا بهيما ؛ فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة حتى اعتبروها خيرا محضا ، والآخرون أساءوا الظن بها حتى اعتبروها شرا محضا(١٧)، والإسلام يخالفهم حيث رأى في الإنسان استعدادا للخير والشر ، وأن لديه قدرة على تزكية نفسه باتباع الحق ، وتدنيسها بمخالفة الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ الشمس: ٧ – ١٠.

---

(١٤) منهاج السنة لابن تيمية 171/5 .

(١٥) رواه النسائي في كتاب العيدين ، باب كيفية الخطبة.

(١٦) رواه مسلم في كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة.

(١٧) الخصائص العامة ليوسف القرضاوي/130.

كما أن الإسلام وسط في المأكولات يحل لأتباعه الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، قال تعالى واصفا نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٧ ؛ خلافا للنصارى الذين لم يحرموا ما أحل الله فاستحلوا النجاسات والخبائث والميتة والدم ولحم الخنزير ، وخلافا لليهود الذين حرموا طيبات أحلت لهم(١٨).

كما أن الإسلام وسط في الأخلاق بين اليهود والنصارى ، فقد أمر بالصفح عمن أساء إليه أو مقابلته بمثل ما وقع منه إذا كان لا ينفع معه الصفح (١٩)، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ النحل: ١٢٦ ، وقال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الشورى: ٤٠ ؛ خلافا لأهل الكتاب فإن دين اليهود مؤسس على الانتصار المحض ، ودين النصارى مؤسس على التذلل المحض(٢٠).

اتباع منهج الوسط :

الوسطية هي منهج الحق ومسلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ، وقد انحصر في منهج الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ختم برسالته جميع الرسائل ، ونسخ بشريعته جميع الشرائع ، وأصبح منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط بعد ظهور الأهواء والافتراق ، فعلى المسلم اتباع هذا المنهج القائم على الاعتدال ، البعيد عن طرفي الغلو والتفريط ، كما كان شأن سلف الأمة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ؛ فإنهم اتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلكوا مسلكه ودعوا إليه ، يقول علي رضي الله عنه : (خير الناس هذا النمط الأوسط ، يلحق به التالي ، ويرجع إليه الغالي)(٢١) ، هذا

---

(١٨) منهاج السنة 171/5 .

(١٩) الإسلام والرد على منتقديه لمحمد عبده/6 .

(٢٠) الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن محمد العامري /142 .

(٢١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف رقم 35639 ، وإسناده جيد .

النمط هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ودعا إليه من سار على نهجه واتبع سنته ، وهو يجنب صاحبه سبل الضلال التي يدعو إليها شياطين الإنس والجن ؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده . ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط عن يمينه وشماله . ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه) (٢٢) ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

ولما كان الغلو في المعتقدات والعبادات يدفع إلى التشدد في الدين نهى الله عنه أهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة: ٧٧، كما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته منه بقوله : (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) (٢٣) وذلك لأن الغلو يخرج صاحبه عن منهج الوسط فيؤدي به إلى الهلاك .

---

(٢٢) رواه أحمد1/465 ، قال محمود شاكر : إسناده صحيح .

(٢٣) رواه أحمد 1/215 .

القضية الثانية : الإرهاب

احتلت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر موقع الصدارة من اهتمام الباحثين ؛ نظرا لاتساع دائرتها ، وانتشارها في معظم أنحاء العالم ، مما اقتضى بذل مزيد من الجهود العلمية في دراستها وتحليلها للتعرف على أسبابها ووسائل علاجها ؛ لذا كانت ومنذ ثلاثة عقود مبعث قلق المجتمع الدولي ، عبرت عنه الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم 3034 الصادر في 18 ديسمبر 1972م ، حيث أوصت الدول الأعضاء فيها بالبحث عن حلول عادلة وسليمة تسمح بإزالة الأسباب المؤدية إلى أعمال العنف (٢٤) ، وفي الوقت الحاضر ازداد الاهتمام بهذه الظاهرة بسبب تنامي الأعمال الإرهابية ، وتباين أشكالها .

تعريف الإرهاب :

أ – في اللغة : مشتق من الفعل الثلاثي (رَهَبَ) أي خاف ، والرهبة في أصل اللغة تعني الخوف والفزع(٢٥).

وقد ظهرت كلمة رعب (Terreur) لأول مرة في اللغة الفرنسية عام 1355م وجاءت من اللغة اللاتينية (Terreor) التي تعني الخوف والقلق المتناهي الذي يساوي تهديدا غير مألوف وغير متوقع بصورة واسعة(٢٦).

ب – في الاصطلاح : يصعب وضع تعريف جامع مانع نظرا لاختلاف نظرة الدول والمجتمعات إلى هذه الظاهرة وتشعبها وتنوع بواعثها وأهدافها ، ولاختلاف الأطر المرجعية والقانونية التي يستند عليها في التعريف .

وبسبب عدم الاتفاق على تعريف اصطلاحي محدد كثرت التعريفات ؛ لذا نكتفي منها بتعريف قانوني وآخر شرعي يوضحان المقصود به :

- عرفه مجلس وزراء الداخلية العرب بأنه : (كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيا كانت بواعثه

---

(٢٤) الإرهاب الدولي لمحمد عزيز شكري /240 .

(٢٥) لسان العرب لابن منظور 3/ 1748.

(٢٦) الإرهاب بين التجريم والمشروعية لإمام حسانين خليل /33 .

أو أغراضه يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر)(٢٧).

• عرفالمجمع الفقهي في مكة المكرمة بأنه : (العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان في دينه وعقله ودمه وماله وعرضه ، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق وكل أفعال العنف أو التهديد)(٢٨).

الإرهاب في الماضي والحاضر :

الإرهاب ليس جديدا في تاريخ الشعوب والمجتمعات ، بل عرفته البشرية منذ تاريخها القديم ، فهو ظاهرة قديمة ابتدأت بالإقدام على قتل النفس البريئة حين استباح قابيل قتل أخيه هابيل ظلما وعدوانا فكان من النادمين كما أخبر تعالى : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٢٧ - ٣٠ (، ويمكن عد الإرهاب المتمثل في قتل الأبرياء والاعتداء على الممتلكات وتدمير المنجزات الإنسانية والحضارية من قبيل التطرف العملي .

ومن الظواهر القديمة الغلو أو التطرف الديني الذي كان متفشيا في بني إسرائيل كما أخبر تعالى : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء: ١٧١ ، فقد مارسه اليهود ضد النصارى عمليا من منطلق عنصري يقوم على فكرة أنهم شعب الله المختار ، فكان ما أنزلوه بهم في عهدهم الأول شاقا وعظيما حين أباحوا دماءهم

---

(٢٧) اجتماع مجلس وزراء الداخلية العرب عام 1417هـ بتونس .

(٢٨) بيان المجمع الفقهي في مكة المكرمة 2001/1/10م

وأعراضهم وأموالهم ، وعدوا ذلك نوعا من القربة إلى الله تعالى ؛ بل حدد التلمود أنواعا من الطهر لا يصل إليها اليهودي إلا باستعمال الذبائح البشرية من النصارى ، فوقعت أحداث عظيمة مدونة في كتاب الكنز المرصود (لروهلنج) منها قتل اليهود في الشام للأب (توما الأكويني) وعصره ليصنعوا منه كعكة الغفران .

وفي المجتمعات الرومانية القديمة شهدت النصرانية على أيدي الأباطرة الرومان (نيرون ودوميشان سبتموس سفريوس) وغيرهم إرهابا قاسيا بسبب مصادرة حرية التدين ، كان من أبرز مظاهره إحراق الأمبراطور الروماني (نيرون المتوفى عام 96م) مدينة روما ليشفي حقده بمرآها وهي تشتعل بأهلها وأموالهم ، وتعذيبه لمؤمني النصارى ، ومارست الكنيسة أسلوب الإرهاب الديني مع مخالفيها في عهد الأمبراطور الروماني (قسطنطين) في نهاية الربع الأول من القرن الرابع الميلادي حينما أصدر قرارا بحرق اليهود ، وفي بريطانيا أحرقت الملكة تيودور عام 1155م مائتين وثلاثةوثمانين شخصا لأنهم ينتمون لطائفة البروتستانت ، وفي فرنسا ابتداء من عام 1208م ولمدة خمس سنوات ذبح مليون شخص من (الألبيين) للعلة نفسها ، وفي أمريكا مورس الإرهاب ضد الهنود الحمر والملونين السود .

كما ارتكب البرتغاليون والأسبان في القرن الخامس عشر الميلادي أبشع أنواع العنف والإرهاب ضد الشعوب المستعمرة ، وتبعهم في ذلك الهولنديون والبريطانيون والإيطاليون ، وكانت الدول الاستعمارية تنكر على شعوب البلاد المستعمرة مقاومة هذا الإرهاب(٢٩) .

وتعرض العالم لآثار مدمرة نتيجة حربي الإبادة العالميتين الأولى والثانية التي قادتها بريطانيا وفرنسا واليابان وأمريكا وذهب ضحيتها الملايين من البشر وتركت خسائر مالية كبيرة لا تقدر بعدد ، وكان ت أبشع صورها إلقاء الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما ونجزاكي اليابانيتين .

وبالرغم مما تتمتع به شعوب الدول الغربية واليابان من حريات ، وما يتوافر لدى حكوماتها من قوة هائلة في المعلومات ونظم الأمن المتطورة فإنها غدت في العقود الماضية بيئة للأعمال الإرهابية الموجهة ضد أمنها وسيادة القانون فيها ، فقد :

- ظهر التيار النازي في ألمانيا ثانية وبقوة منذ عام 1986م .
- ظهرت حركة (لوبن) القومية المتطرفة في فرنسا .
- ظهرت حركة (الباسك) الأسبانية التي تسببت في قتل مئات الأبرياء من المواطنين والسياح ، وإتلاف ما قيمته ملايين الدولارات .
- تعرضت بريطانيا منذ عام 1970م لسلسلة من الأعمال الإرهابية الخطيرة من جانب جيش

---

(٢٩) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي لمحمد محيي الدين عوض / 41 .

إيرلندا الجمهوري (IRA) .

- ظهرت جماعات اليمين المتطرف في ألمانيا على أعقاب توحيد ألمانيا وزيادة حجم البطالة .
- ظهر الجيش الأحمر الألماني ومجموعة (اندرياس بادر ماينهوف) .
- ظهرت الأنشطة الإرهابية للأجنحة العسكرية اليسارية في كل من فرنسا وبلجيكا.
- ظهرت الفيالق الحمراء الإيطالية (الألوية الحمراء)(٣٠)
- ظهرت منظمة (حقيقة أوم العليا) ، و(مافيا يكوزا) في اليابان .
- عانت الولايات المتحدة الأمريكية من المنظمات الإرهابية الأمريكية وغيرها ، وفي مقدمتها منظمة (كو كلوكس كلان) التي تأسست ما بين عامي 1861م ــ 1865م (٣١)، وتعرضت لعدد من الأعمال الأرهابية مهما حادث المركز التجاري بأكلاهوما عام 1995م الذي راح ضحيته 186مدنيا و400 جريح على يد أحد رجال الجيش الأمريكي ويدعى (تيموثي ماك فاي).
- تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية في 11 سبتمبر لحوادث اختطاف طائرات أدت إلى تدمير المركز التجاري في نيويورك وهدم جانب من وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن ، وتسبب في قتل ثلاثة آلاف شخص تقريبا .

تطورت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر لتظهر في أشكال مختلفة ومتنوعة مثل اختطاف الطائرات ونسف المباني والجسور وتدمير المنشآت الحضارية وغيرها ، ولم تسلم منها دولة من الدول أو مجتمع من المجتمعات البشرية بما فيها المجتمعات المتقدمة علميا والغنية ماديا والقوية أمنيا ، مما يدل على أنها لا ترتبط بدين من الأديان ولا بشعب من الشعوب ، ولا بطبقة اجتماعية معينة ، وإنما تحدث غالبا كمسلك تنفيذي لمعتقد خاطئ ، أو مسلك انتقامي ، أو بسبب وازع عدواني يصدر عن نفس خبيثة ملئت حقدا وكراهية للآخرين وطبعت على حب التدمير والإفساد في الأرض ، وغذاها الجهل والفقر والإحباط النفسي .

وقد تعرضت الشعوب الإسلامية أكثر من غيرها لحوادث القتل والإبادة الجماعية ، فقد عانى المسلمون لمدة قرنين ابتداء من نهاية القرن العاشر الميلادي من حروب صليبية متوحشة في الشام ومصر ، وتعرضوا في الأندلس لألوان من التعذيب والتنكيل والإبادة الجسدية خلال عامي 1609–1610م عن طريق محاكم التفتيش التي سيقوا إليها في قشتالة وأشبيلية وغرناطة ، وذاقوا مرارة الهيمنة العسكرية الاستعمارية الإيطالية والبريطانية والفرنسية والأسبانية والهولندية خلال القرنين التاسع والعشرين التي تفننت في

---

(٣٠) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي لمحمد محيي الدين عوض / 42ــ47 .

(٣١) الإرهاب في العالمين العربي والغربي لأحمد يوسف التل /432 .

التعذيب والاضطهاد واجتثاث كل حركات التحرر من الاستعمار ، ولم تزال الشعوب الإسلامية في فلسطين وكشمير والفلبين تتعرض لألوان من الإذلال والمهانة .

موقف الإسلام من الإرهاب :

لا ريب أن الإرهاب مرفوض في الأديان والقوانين ، ويمثل خطرا على المجتمعات والدول إذ يتخذ من إهلاك الحرث والنسل بغير حق وسيلة لتحقيق هدف من الأهداف الشخصية أو القومية أو الدولية ، وقد نبذ الإسلام التطرف بكل أشكاله ، وعده نوعا من الظلم ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ الطلاق: ١ ، وبين أن مصير الغالي المتنطع الهلاك والانقطاع ، قال صلى الله عليه وسلم : (هلك المتنطعون)(٣٢)، وقال صلى الله عليه وسلم : (إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا)(٣٣) ، واعتبر الإسلام التطرف العملي نوعا من المحاربة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والإفساد في الأرض يستحق فاعله أشد العقوبات وأقساها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة: ٣٣ ، وقال تعالى :﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة: ٢٠٥ .

ذلك أن الإسلام (دين يمتلك صيغة وفاق إنساني عالمي ، يملكها منهجا ، ويملكها سيرة وتاريخا وحضارة من غير أن يصادر حقوق الآخرين وتطلعاتهم ، ويحقق ذلك من خلال مباديء عادلة يرتضونها لأنفسهم ، من هذه المباديء سماحته ورحابة مبادئه واحتواؤه على أسس التعايش السلمي العالمي لجميع أمم الأرض مهما اختلفت انتماءاتها الدينية والطائفية والعرقية والثقافية ، ومنها أنه لا يكره أحدا على دخول الإسلام)(٣٤).

---

(٣٢) رواه مسلم في كتاب العلم ، باب : (هلك المتنطعون).

(٣٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب الدين يسر .

(٣٤) ملخص محاضرة بعنوان : موقف الإسلام من الإرهاب ، ألقيت في ندوة الإسلام وحوار الحضارات للدكتور صالح بن حميد ، صحيفة اليوم ، الثلاثاء 1423/1/5هـ 19مارس 2002م العدد / 10504 .

كما أن الإسلام دين يدعو إلى السلام والتسامح والأمن والاستقرار على الأرض ، وهو دين رفع شعار السلام ، وجعله عنوانا له ، وعلى أساسه رسم ملامحه ومبادئه ، فقد قضى على نزعات العنف الهدامة ، وعلى بذور الشر في النفس الإنسانية ، وإذا كان التطرف أو الإرهاب ينشأ أو يرتكب لدوافع سياسية واقتصادية واجتماعية فإنه عالج هذه الدوافع من المهد ، ولم يسمح بوجودها أو تطورها ، وقد دعا إلى نبذ العنف والإكراه ، والجنوح إلى السلم ، وحرم استخدام القوة بشكل غير مشروع ، وأمر أن يعتمد الحوار مع المخالف على المجادلة بالتي هي أحسن ، وشرع قانونا متكاملا يحدد جرائم الإفساد في الأرض التي تحدث على وجه الإخافة والإرهاب ، وبين صورها ، وجزاء مرتكبيها ، وعدها نوعا من محاربة الله تعالى قبل محاربة أفراد المجتمع(٣٥) ، وعاقب عليها بجزاء رادع للمجرم وزاجر لغيره من ارتكاب ذات الجريمة وتكرارها .

بل سبق الإسلام جميع الدساتير الحديثة في معالجة ظاهرة التطرف ومكافحة الإرهاب والعنف ، وذلك عن طريق تقرير المباديء التي تعترف بكرامة الإنسان ومسؤوليته ، وتشريع الأحكام التي تحفظ حياته وعرضه وماله ودينه وعقله ؛ لذا (منع الإسلام بغي الإنسان على أخيه الإنسان ، وحرم كل عمل يلحق الظلم به ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٣ ، وشنع على الذين يؤذون الناس في أرجاء الأرض ، ولم يحدد ذلك بديار المسلمين كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ البقرة: ٢٠٥ ، وأمر بالابتعاد عن كل ما يثير الفتن بين الناس ، وحذر من مخاطر ذلك) (٣٦)، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ٢٥ .

ويقيم الإسلام علاقة المسلم بالمخالف له في الدين من أهل الكتاب وغيرهم على أساس التعامل بالبر والقسط والاعتراف له بالحقوق المدنية ، والعيش في ديار المسلمين بأمان سواء كان ذميا أو مستأمنا ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ

---

(٣٥) مقالة : إرهاب المقاومة للدكتور ماجد ياسين الحموي ، صحيفة الشرق الأوسط ، الأربعاء 1423/2/11هـ 24 إبريل 2002م

(٣٦) بيان مكة الصادر عن المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته / 16 المنعقدة من 21– 1422/10/26هـ ، صحيفة اليوم ، السبت 1422/10/28هـ ، العدد 10438.

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الممتحنة: ٨ - ٩ ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٨ ، وقد أوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأ ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٣٧) .

موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب :

تعد المملكة في مقدمة الدول التي أعلنت حربها على الإرهاب ، وقد حرصت على المشاركة في المؤتمرات الأقليمية والدولية التي تعنى بهذا الموضوع ، وعلى الانضمام إلى الاتفاقيات العربية والدولية التي تسهم في مكافحة ظاهرة الإرهاب ، كما أنها عملت بكل دقة وجدية على تنفيذ بنود الاستراتيجيات والخطط الأمنية التي تم إقرارها لتحقيق التكامل الأمني ومكافحة الجريمة بكل صورها وأشكالها والحفاظ على أمن الوطن وحماية حياة أفراده وممتلكاتهم ، وتوثيق أواصر التعاون الأمني خاصة بين الدول العربية ، ومن ذلك تنفيذ الاستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب التي أقرها مجلس وزراء الداخلية العرب عام 1417هـ ، وأعقب ذلك إقرار الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب في صورتها النهائية عام 1419هـ بهدف تعزيز التعاون لمنع الإرهاب ومكافحته وإزالة أسبابه ، والتعاون مع الدول والمنظمات الدولية من أجل ذلك(٣٨) .

ومن المؤسف أن المملكة العربية السعودية لم تسلم من هذه الظاهرة ؛ إذ اجتاحت موجتها بعض مدنها الكبيرة متعرضة لحوادث إرهابية مؤلمة ، كان ضحيتها الأبرياء من المدنيين ورجال الأمن ، وحصول دمار لبعض مرافقها الهامة وبنيتها التحتية ، واستهدفت أمنها ووحدتها إلا أن هذه الظاهرة تم التصدي لها بعون من الله تعالى ثم بفضل حزم الدولة في التعامل معها ، ووعي المواطن بخطورتها وتعاونه في مكافحتها .

---

(٣٧) سورة النساء /92 .

(٣٨) مقالة : قراءة متأنية للتفجيرات الإجرامية لسعد عودة الردادي ، جريدة عكاظ في عدد الثلاثاء 19 ربيع الأول 1424هـ رقم 13415 / 8 .

إن الأعمال الإرهابية تعد من الناحية الشرعية جريمة خطيرة لما لها من آثار سيئة على ضروريات الناس وحياتهم ومعاشهم ، لذلك ألحقتها هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية بجريمة الحرابة والإفساد التي توعد الله فاعلها بعقوبة زاجرة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة: ٣٣ لبشاعتها وعظم ضررها ، يظهر هذا جليا في قرارات الهيئة وفق ما يأتي :

1ـــ اعتبار قتل الغيلة نوعا من الحرابة ، وهو ما كان عمدا عدوانا على وجه الحيلة والخداع ، أو على وجه يأمن معه المقتول من غائلة القاتل ، وذلك بقرار الهيئة رقم (38) وتاريخ 1395/8/11هـــ .

2ـــ اعتبار التفجير والاختطاف وإشعال الحرائق في الممتلكات العامة والخاصة ، ونسف المساكن والجسور والأنفاق ، وتفجير الطائرات أو خطفها من الحرابة ، وذلك بقرار الهيئة في دورتها الثانية والثلاثين المنعقدة في مدينة الطائف في الفترة من 1409/1/8هـــ إلى 1409/1/12هـــ .

3ـــ اعتبار حوادث التفجير التي حدثت في بعض المدن العربية ، وما حصل بسببها من قتل وتدمير وترويع وإصابات لكثير من الناس من المسلمين وغيرهم من الإفساد ، وذلك في بيان أصدره مجلس الهيئة في الطائف في 1417/2/14هـــ .

لذا فإن المسلم يجب عليه أن يخاف الله تعالى ويتقه ، ويتجنب كل ما فيه إضرار بأمن الناس ومعاشهم ، وأن يتعاون مع ولي الأمر والقائمين على الأمن في التصدي لكل من يتبنى أفكارا ضالة ، أو يمارس سلوكا يخل بأمن الوطن أو يسيء إلى مبادئه ووحدته ، فإن الأمن نفيس لا يصح التهاون فيه بأي حال من الأحوال .

القضية الثالثة : الاستشراق

معنى الاستشراق :

هو تعلم علوم الشرق .

ويرى المستشرق (ميكائيل أنجلو جويدي) أن المستشرق الجدير بهذا اللقب هو الذي لا يقتصر على معرفة بعض اللغات التي تتحدث بها الأمم الشرقية وإدراك عاداتها فحسب ، بل يجمع إلى ذلك الوقوف على القوى الروحية والفكرية والأدبية التي أثرت في الثقافة الإنسانية (٣٩) .

تاريخ الاستشراق :

لا يمكن تحديد اسم أول غربي اعتنى بالدراسات الشرقية ، ولا في أي وقت ، ولكن المتوقع أن رجال الكنيسة في أوروبا هم أول من قصد البلاد الشرقية ، ولاسيما الأندلس إبان ازدهارها لدراسة العلوم الإسلامية وترجمة القرآن الكريم والعلوم الأخرى وبخاصة الفلسفة والطب والرياضيات ، ومن أوائل هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت) الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 999م بعد عودته من الأندلس ، وبطرس المحترم (1092 ــ 1156م)، وجيراردي كريمون (1114ــ 1187م)(٤٠).

تلك كانت البداية ، إلا أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة نشيطة بعد فترة عهد الإصلاح الديني على يد (مارتن لوثر) عام 1543م ، كما يشهد بذلك التاريخ في هولندا والدانمارك (٤١) .

مراحل الاستشراق :

لقد مرَّ الاستشراق بثلاث مراحل ، وهي على النحو الآتي :

المرحلة الأولى : مرحلة استكشاف كنه الإسلام وأسباب انتشاره ، وحقيقة الفاتحين المسلمين وسر قوتهم العسكرية ، وتعد هذه المرحلة مرحلة موضوعية تبحث عن الحقيقة .

---

(٣٩) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة / 17 .

(٤٠) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي / 13 .

(٤١) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي / 472 .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة مشوبة بالعدوان ،وتبحث عن العيوب والنقائص في العلوم الإسلامية وبُنية المجتمع ، وتوجّه الصليبيين ضد مصالح المسلمين ، وتعمل على إثارة الشّبه حول قضايا الإسلام لإضعاف القناعة به .

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة العدوان السافر ، وقد ظهرت بعد فشل الحملات الصليبية التي كان آخرها الحملة الثامنة بقيادة لويس التاسع الذي لفت أنظار الغرب بعد أسره في المنصورة بمصر إلى الغزو الفكري حين قال : (لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تديّنهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية دار الإسلام وصون الحرمات والأعراض ، وأنه لابد من سبيل آخر وهو تحويل الفكر الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري) (٤٢) .

فكانت منعطفاً في تاريخ الاستشراق حوّلته إلى حرب العقيدة والفكر عن طريق التأليف والمؤتمرات والمجلات ووسائل النشر .

أهداف الاستشراق :

الهدف الأول ــ هدف علمي (هدف موضوعي) : أقبل نفر قليل من المستشرقين على كتب التراث الإسلامي بهدف الإطلاع على حضارات الأمم وثقافاتها ولغاتها ودراستها دراسة موضوعية وجادة رغبة في الوصول إلى الحقيقة العلمية ، وقد كانوا أقل من غيرهم خطأً ، لأنهم فيما يظهر لم يتعمدوا التحريف والدّس ، فجاءت بحوثهم أقرب إلى الصواب والموضوعية من غيرهم ، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام مثل (اللورد هيدلي دانين دنينيه) وتسمى (بناصر الدين دنينيه) ، ومنهم من كان مُنصفاً في رأيه مثل (رينان) الذي أنكر ألوهية المسيح عليه السلام وأثنى على كتب السيرة النبوية ، و (كان لايل) الذي أعجب بشخصية الرسول ، ووعدّه من الأبطال ، على أن هؤلاء غالباً ما يعتمدون على مواردهم المالية الخاصة بحيث يتمكنون من البحث المجرد عن الهوى أو التأثير الخارجي (٤٣) .

الهدف الثاني ــ هدف صليبي ، وتمثل فيما يأتي :

1 ــ الانتصار للصليبية التي اتجهت حملاتها إلى البلاد الإسلامية ثم الاستمرار في القيام بدور الهجوم الفكري على عقيدة الأمة الإسلامية وفكرها بعد فشل هذه الحملات عسكرياً عن طريق تشويه مبادئ الإسلام وقِيَمه ومصادره وتاريخه .

---

(٤٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة / 18 .

(٤٣) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي / 19 .

2 ــ التهيئة للتبشير بالنصرانية بين المسلمين ليقوم الاستشراق بوظيفة تجهيز المنصرين ، وإحاطتهم بواقع العالم الإسلامي ، وعيوب المجتمعات الإسلامية ، وأماكن تجمعات النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية ، ومدى تأثيرهم ومساعدتهم لدوائر التنصير بالمعلومات .

3 ــ الحاجة إلى العلوم الإسلامية تجاوباً مع الضغط الفكري الذي تتعرض له الكنيسة عن طريق النقد للنظريات والآراء الفلسفية والتاريخية التي كانت تتبناها الكنيسة وتُضفي عليها صفة القداسة ، مما اضطرها إلى إعادة النظر في شروح الأناجيل لمحاولة تفهمها على أساس التطورات العلمية الجديدة ، ولاسيما بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها (مارتن لوثر) ، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدّت إلى الدراسات العربية ، لأن هذه الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، ومع مرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية (٤٤) .

الهدف الثالث ــ هدف دفاعي : حرص عليه رجال الكنيسة عن طريق الكتابة باللغات المحلية في أوروبا لتشويه صورة الإسلام ووصفه بالوحشية والعداء للشعوب الأخرى ، والشدة في الأحكام حتى لا يغتر أبناء أوروبا بالحضارة الإسلامية ولاسيما في عهد ازدهار الحضارة العثمانية وامتداد فتوحاتها إلى قلب أوروبا مما كان محل إعجاب كثير من الأوروبيين وانبهارهم متنكرين بذلك للأهداف العلمية(٤٥).

وسائل الاستشراق وأنشطة المستشرقين :

1 ــ التأليف : اتجه عدد كبير من المستشرقين إلى التأليف في موضوعات مختلفة عن الإسلام وعقيدته ورسوله صلى الله عليه وسلم وقرآنه والسنة النبوية ، وتعمّد غالب هؤلاء تشويه صورة الإسلام وإثارة الشبهات حوله ، ومن هؤلاء :

ــ أ . ج . أربري : وهو مستشرق إنجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام ، ومن كتبه : (الإسلام اليوم) صدر عام 1943م . (التصوف) صدر عام 1950م (ترجمة القرآن) صدر عام 1950م .

ــ أ . ر. جب : وهو مستشرق إنجليزي معادٍ للإسلام ، تتّسم كتبه بالعمق والخطورة ومنها : (طريق الإسلام) بالاشتراك ، (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) صدر عام 1947م ، (المذهب المحمدي) صدر عام 1947م .

ــ أ . ج . فينسينك : عدوّ لدود للإسلام يدّعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ألَّف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته ، ومن كتبه (عقيدة الإسلام) صدر عام 1932م .

---

(٤٤) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي / 472 .

(٤٥) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة / 19 ـــــ 20 .

2 ــ الجمعيات والمجلات : أنشئ في أوروبا عدد من الجمعيات التي تخدم الاستشراق ، وتسعى إلى تحقيق أهدافه ابتداءً من عام 1787م ، حيث أنشئت جمعية المستشرقين في فرنسا ، وأُلحق بها أخرى عام 1820م ، وأصدرت (المجلة الآسيوية) ، وفي لندن تألفت جمعية تحت رعاية الملك عام 1823م باسم (الجمعية الآسيوية الملكية)، وفي أمريكا عام 1842م نشأت (الجمعية الشرقية الأمريكية) ، وصدرت عدة مجلات منها : (مجلة الدراسات الشرقية) وكانت تصدر في ولاية (أوهايو) ، ومجلة (شئون الشرق الأوسط) وهي ذات طابع سياسي .

3 ــ الدوائر المعرفية : ومن أشهرها (دائرة المعارف الإسلامية) التي كانت تصدر بعدة لغات ، وقد استنفر المستشرقون كل قواهم وسخروا كل أقلامهم من أجل إصدار هذه الموسوعة التي تعتمد على الخلط والتحريف والعداوة السافرة لفكر الإسلام .

إلى غير ذلك من المجالات ، مثل محاولتهم الدخول في المجامع العلمية العربية كمجمع اللغة العربية بالقاهرة وفي دمشق ، كما حاولوا التأثير على مبادئ التربية الإسلامية واستبدالها بالمبادئ الغربية(٤٦).

آثار الاستشراق على ثقافة المسلمين :

أدّى الاستشراق إلى إضعاف عقيدة المسلمين ، وتشويه صورة الإسلام لدى أبنائه ، وإشعارهم بتناقض دينهم وقصوره في مواجهة الجديد والمتطور في واقع الحياة ، ومقارنة ذلك بالفكر الغربي الذي أظهره المستشرقون في صورة الفكر المتكامل والمتلائم مع الحياة العصرية ، مما أدّى إلى انهزام نفسية كثير من المسلمين أمام التيار الجارف من كتابات المستشرقين التي تدس الفكر المنحرف ، وتثير الشبه حول الإســـلام .

---

(٤٦) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي / 474 ـــ 476 . الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي / 26 ـــ 43 .

القضية الرابعة : التنصير

تعريف التنصير :

أ – في اللغة : كلمة التنصير مأخوذة من نصَّره أي أدخله في النصرانية ، وجعله نصرانيا (٤٧) ، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه)(٤٨) ، وقيل : سميت بالنصرانية نسبة إلى مدينة الناصرة بفلسطين ، وقد موه المستشرقون لما سموا التنصير بالتبشير لإخفاء غايتهم منه ، وهي الدعوة إلى النصرانية ؛ إذ تسميته بالتبشير مأخوذة من البشارة ، وهي الخبر الذي يفيد السرور ، ويظهر أثره الحسن على بشرة الإنسان .

ب – في الاصطلاح : هي الجهد المبذول بصفة فردية أو جماعية في دعوة الناس إلى النصرانية ، و يطلق أيضا على ما تقوم به المنظمات الدينية من تعليم الدين النصراني ونشره (٤٩) .

نشأة التنصير :

يعود تاريخ التنصير كدعوة إلى مبتدأ دعوة المسيح عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وإلى إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل في شريعة موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٤٦ ، وكانت دعوة سرية بسبب تكذيب اليهود للمسيح عليه السلام واضطهاد الرومان لأتباعه إلا أن النصارى مع تقادم العهد بالمسيح ، وابتعادهم عن تعاليمه انحرفوا عن التوحيد ، وبدلوا الشريعة التي أمروا باتباعها ، وأعادوا كتابة الأنجيل بما يتوافق مع أهوائهم ، ونسبوا ما ادعوه من تحريف في التوحيد وتبديل في الشريعة إلى الله تعالى زورا وبهتانا ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ

---

(٤٧) لسان العرب لابن منظور ، مادة : نصر .

(48) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات 456/1، ومسلم في كتاب القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة .

(٤٩) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد / 161 .

يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩ .

وبعد اعتناق (قسطنطين) النصرانية في القرن الرابع الميلادي وإصداره قرار حرية التدين عام 312م بميلانو تحولت دعوة أتباع المسيح عليه السلام إلى دعوة جهرية ، إلا أن دعوة المسلمين إلى النصرانية لم تعرف بالتأثير والنشاط المدعومين إلا بعد فشل الحملات الصليبية التي استمرت مائتي سنة من الحروب الدامية ، تمكن النصارى خلالها من الهيمنة على بيت المقدس ، ومن ثم استردها المسلمون من أيديهم في معركة حطين عام (583هـ 1188م) بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي ، وما تبع هذه المعركة من هزائم شنيعة للنصارى ، دفعهم إلى إيقاف هذه الحملات ، واتباع مسلك آخر في مواجهة المسلمين ، هو الغزو الفكري ، ويُذكر أن القسيس (فرانس) من أوائل النصارى الذين وصلوا إلى العالم الإسلامي ، فقد وصل إلى مصر عام (616هـ 1219م) ، كما أرسل القديس (فرانسيس) عددا من المنصرين إلى مراكش بالمغرب ، كما قدم (ريمون لول) الراهب الأسباني عام (693 هـ 1294م) إلى البابا خطة لتنصير المسلمين بعد أن أتقن اللغة العربية في مدارس الأندلس بكل مشقة ، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين(٥٠) ، وغيرهم من القساوسة الذين اتجهوا إلى بلدان العالم الإسلامي لتنصير أبناء المسلمين.

وبرز التنصير بعد ذلك نشاطا للكنائس حينما أرسلت عددا من أ رسالياتها المتعددة إلى الهند وجزائر السند(٥١) والشرق العربي لتنصير المسلمين ، ففي عام 1209هـ 1795م بدأ نشاط جمعية التنصير المعمدانية في بنغلاديش ، وفي عام (1258هـ 1843م أسست الجمعية التنصيرية (أخوات القديس يوسف) مدرسة للبنات بتونس ، وفي عام 1285هـ 1868م أسست (جمعية الآباء البيض للسيدة العذراء) في شمال أفريقيا لتنصير المسلمين ، وفي عام 1309هـ 1892م وصل القس (صموئيل زويمر) إلى البحرين ليتخذها مركزا للتنصير في منطقة الخليج العربي ، وهكذا تتابعت الإرساليات وتلاحقت ، وشملت بقاعا واسعة في البلدان الإسلامية(٥٢) .

بواعث التنصير :

---

(٥٠) الغارة على العالم الإسلامي لشاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي / 22.

(٥١) أجنحة المكر الثلاثة لعبد الرحمن الميداني/ 28 .

(٥٢) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور محمد اليحياوي /184 .

أولاً : الباعث الديني : يستند المنصِّرون في دعوتهم الناس إلى النصرانية على تفويض إلهي ورد في إنجيل (متى) بتنصير الناس ينسب إلى المسيح عليه السلام في قوله للحواريين : (اذهبوا وتَلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس) (٥٣) ، وقوله : (اذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا – أي عظوا – إلى العالم أجمع ، واكرزوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها) (٥٤) .

وواقع حال التنصير أنه تحول من دعوة لإنقاذ المسلم من الضلال إلى وسيلة إفساد تعمل إلى إخراج المسلم من دينه ليكون ملحداً كما يقول (زويمر) في مؤتمر القدس عام 1935م : (مهمة التنصير التي نَدَبَتْكُم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله)(٥٥) ، والتالي فإن هذا الباعث صار ثانوياً ، إذ أن نفراً قليلاً من المبشرين يهدف إلى نشر الدين النصراني ، على أن الكثرة ترمي إلى إخراج المسلم من دينه .

ثانياً : الحقد الصليبي :

يمكن القول بأن هذا الباعث من أقوى البواعث ، فإنه منذ انتشر الإسلام وظهر على الدين كله وأهل الكتاب يضمرون العداوة للإسلام وأهله ، وزاد الأمر كراهية بعد اتساع نفوذ الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيطرتها على الشام ومصر التي ينظر إليها الصليبيون على أنها تابعة لهم على أساس أنها كانت جزءا من ممالك الدولة الرومانية ، وامتدادها في عهد العثمانيين إلى شرق أوروبا وجنوبها ، وهو ما عبر عنه المنصر الألماني (بيكر) في قوله : (إن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سدا في وجه انتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها) (٥٦) وزاد حقد النصارى بعد ارتدادهم على أدبارهم مهزومين إثر الحروب الصليبية التي دامت قرنين ، مما ولَّد في نفوسهم آلاماً صعب عليهم نسيانها ففرغوها في مخططات التنصير التي تسعى إلى تحويل المسلمين عن دينهم وَلَوْ إلى الإلحاد(٥٧) ، وتعمل على بسط النفوذ الغربي عن طريق تلاميذ التنصير والمُغْتَرِّين بحضارة الغرب ، وهذا ما أبدته ألسنتهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ١١٨، يقول المنصر (جون تاكلي) : يجب استخدام أمضى

---

(٥٣) الإصحاح 28 /18–20 .

(٥٤) إنجيل مرقص ، الإصحاح 16/15–16 .

(٥٥) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، لعلي جريشة / 31 .

(15) التبشير والاستعمار للخالدي/36 .

(٥٧) أجنحة المكر الثلاثة ، لعبد الرحمن الميداني / 27 .

سلاح ضد الإسلام لنقضي عليه تماما (٥٨)، ويقول المنصر (روبرت ماكس) : (لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة ، ويقام قداس الأحد في المدينة)(٥٩).

ثالثاً : الباعث السياسي :

حقق الغرب عن طريق التنصير نفوذاً سياسياً في العالم الإسلامي ، بدأ مع الاستعمار حين اعتمدت سياسة الدول الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين ، فكثيراً ما كان المنصرون يتولون مناصب سياسية وعسكرية ويتسترون بالتنصير ، ويعملون على حض حكوماتهم على بث المبشرين في العالم ، منهم الجنرال (هانغ) الذي نصح الحكومة البريطانية أن ترسل مبشريها إلى شبه جزيرة العرب ، والمنصر (لافيجري) الذي كان رئيسا للبعثة المرافقة للجيش الفرنسي بتركيا ، وكان يقوم بتقديم النصح للجيش الفرنسي باحتلال البلدان الإسلامية ، وبذلك ساهم التنصير والاستشرا ق في تقديم النصح والمعلومات للدول الاستعمارية الغربية(٦٠) التي رأت في احتلال الدول الإسلامية ما يحقق أهدافها التوسعية التي تؤمن حاجتها من الأيدي العاملة للعمل في المصانع وبناء البنية التحتية ، ومن المواد الخام المعدنية والزراعية التي تتطلبها مصانعها الحديثة ، ومن الأسواق لمنتجاتها الكثيرة ، ومن ثم صارت الحكومات الاستعمارية معينا للمنصرين في الدول الإسلامية التي خضعت لسيطرتهم عرافانا بجميلهم ، كما وجد المنصرون في هذا العون ما يحقق هدفهم وهو إعادة مملكة المسيح ، كما يظهر من قول المنصرين اليسوعيين لما مارسوا نشاطهم في ظل الحكومات الاستعمارية : نحن ورثة الصليبين ، رجعنا تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التنصيري ، ولنعيد ... مملكة المسيح)(٦١) .

الأمر الآخر أن التنصير يسهم في درء خطر الوحدة الإسلامية التي يحن إليها المسلمون بعد سقوط الخلافة العثمانية عام 1343هـ ـ 1924م ، لقد أبرز (لورنس براون) هذا الموقف في صورة واضحة حين قال : (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أو أمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئـذ بـلا وزن ولا تأثير) .

لذلك كان التنصير عاملاً مهماً في كسر كل دعوة إلى الوحدة الإسلامية ، لأن ه عمل على إظهار الغرب بمظهر جذاب يبهر العقول ، ويستميل النفوس ، إلى جانب حرصهم على تحويل مجاري التفكير في

---

(٥٨) التبشير والاستعمار للخالدي/40 .

(٥٩) الزحف إلى مكة : حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي لعبد الودود شلبي /13.

(٦٠) التنصير والاستعمار لعمر فروخ ، و مصطفى خالدي / 34 .

(٦١) التبشير والاستعمار للخالدي/115-116 .

الوحدة الإسلامية إلى التفكير في الدخول في النصرانية(٦٢) ، والأخذ بأسباب نهضة أوروبا التي هي سبيل نهضة العالم الإسلامي ، إلى غير ذلك من البواعث الشخصية والمالية .

وسائل التنصير :

أولاً : التنصير المباشر : يقوم به فرد أو مجموعة من المبشرين المتفرغين لهذه الوظيفة ممن توظفهم الكنيسة وعّاظاً لنشر النصرانية ، ويعتمد هذا النوع على الإقناع الفردي والوعظ العام في الكنائس أو الأماكن العامة لتعريف الناس بالمسيح وحياته وتعاليمه ، وقد أهمل استخدام هذه الوسيلة لأنها لم تكن مجدية في العالم الإسلامي بسبب حرص المسلمين على تمسكهم بدينهم ، واعتقادهم أن الديانة النصرانية ديانة محرفة .

ثانياً : وسائل التنصير المساعدة : يُقْصَد بها التنصير عن طريق مجالي التعليم والعلاج والخدمة الاجتماعية والإعلام ، وقد ظهر هذا الأسلوب في القرن التاسع عشر الميلادي عندما دخلت البلاد الاستعمارية في تحالف مع الإرساليات التنصيرية ، وقد حققت هذه الوسائل نجاحاً في ذلك .

أما وسيلة التعليم فتُعد من أ نجح الوسائل لنشر النصرانية ، ويتم ذلك عن طريق إنشاء مدارس للمراحل الأولى ، والتي غالباً ما يدرس فيها المنهج النصراني والفكر العلماني ، ويتعلم فيها أبناء علية القوم الذين يتوقع لهم التأثير في واقع مجتمعاتهم مستقبلاً ، كما امتد نشاط المبشرين إلى التعليم العالي فافتتحت كليات تنصيرية كجامعة مانيلا وبيروت والقاهرة وتركيا وغيرها ، لمناهضة أنشطة الجامعات الإسلامية إذ لم يكن اهتمامهم بالتعليم بقصد نشر العلم ومحاربة الأمية والجهل بين المسلمين ، وإنما الغاية كما يقول المنصر الأمريكي (هنري جسب) هي : (قيادة الناس إلى المسيح ، وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً نصارى وشعوبا نصرانية)(٦٣).

أما العلاج فهو الوسيلة الفعالة في المجتمعات الإسلامية لإقناع الناس بحاجة المجتمع إلى المنصّرين لاسيما في المجتمعات الفقيرة المتخلفة التي تمارس فيها التعاويذ والتمائم كوسيلتي علاج ، ولإيجاد روح الاعتراف بالجميل والعرفان للمعاملة الطيبة التي قدمت لهم ، وحقق المبشرون منها كسر حدّة التحامل عليهم وبناء قناة اتصال بهم(٦٤) .

فقد استغل المنصرون آلام المرضى وحاجتهم إلى العلاج على أساس مقولتهم : (حيث تجد بشرا تجد آلاما ، وحيث تكون آلام تكون الحاجة إلى الطبيب ، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة

---

(٦٢) المرجع نفسه / 36 .

(٦٣) المرجع نفسه / 66 .

(٦٤) ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي لإبراهيم عكاشة / 26 ــ 31 .

مناسبة للتنصير) (٦٥) ، لذا سارع المنصرون إلى إنشاء المراكز الصحية والمستشفيات لتقديم العلاج فأنشأوا أول عيادة لهم في منطقة الأناضول بمدينة (سيواس) عام 1275هـ 1859م ، وفي الشام أنشأوا مركزا طبيا عام 1292هـ 1875م ، وفي مصر أنشأوا مركزا طبيا بمدينة القاهرة عام 1306هـ 1889م ، وفي الخليج العربي أنشأوا (مستشفى لانسنج التذكاري) بمدينة البصرة عام 1329هـ 1911م ، و(مستشفى ماسون التذكاري التذكاري) بمدينة المنامة عام 1330هـ 1912م ، وتتابع نشاطهم الطبي موهين حقيقة ما يستهدفونه من تقديم العلاج للمريض المسلم في الظاهر إلى ما يبطنونه من دعوته إلى النصرانية(٦٦) ، وهو ما يفصح عنه الطبيب المنصر (أرهاس) في قوله : (يجب على طبيب إرساليات التنصير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه منصر قبل كل شيء ، ثم هو طبيب بعد ذلك)(٦٧).

آثار التنصير على ثقافة المسلمين :

1 ــ إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم في النصرانية كما حدث في تنصير بعض المناطق الإسلامية في أفريقيا وشرق آسيا ، يوضح ذلك المنصر (رايد) حيث يقول : (إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح)(٦٨) ، وإن كان النصارى لم يحققوا في سبيل تحقيق هذا الهدف نجاحا كبيرا يتناسب مع الجهد المبذول إلا أنهم نجحوا في إحداث ردة بين المسلمين وإضعاف ولاء كثير منهم لدينهم ، وتلك كانت غاية أخرى للمنصرين ، وهو ما أفصحوا عنه في مؤتمرهم الذي عقد عام 1927م بأن (الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ؛ ليكون مضطربا في دينه ، وعندها لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بهديها ، وعندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى)(٦٩) .

2 ــ إضعاف قوة المسلمين بإضعاف صلتهم بدينهم ، فإن المنصرين أدركوا أن تمسك المسلمين بدينهم هو سر قوتهم يقول ، المنصر (جاردنر) : (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا) ، كما أن

---

(48) التبشير والاستعمار للخالدي / 59 .

(٦٦) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور محمد اليحياوي/200-201.

(٦٧) الغارة على العالم الإسلامي لشاتيلييه /23 .

(٦٨) التنصير والاستعمار لعمر فروخ ، و مصطفى خالدي / 192 .

(٦٩) ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي لإبراهيم عكاشة / 38 .

إلاسلام العائق الأول أمام تقدم انتشار النصرانية في دول العالم ، يقول مستر (بلس) : (إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا)(٧٠) .

3 ــ تفريق كلمة المسلمين والحيلولة دون وحدتهم وتخلصهم من سيطرة الغرب عليهم ، يعبر عن هذا المنصر القس (سيمون) في قوله : (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية ، وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية ، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة الحركة ، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية) (٧١).

4- تغريب المسلمين في بلادهم عن طريق التعليم الذي اعتنى به التنصير لإيجاد أجيال تنتمي إلى الإسلام اسماً ، وتحمل فكر الغرب حقيقة ، وتمارس عاداته بعيدا عن تعاليم الإسلام وأحكامه ، يقول (تاكلي) : (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني ؛ لأن كثيرا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب الغربية ، وتعلموا اللغات الأجنبية) (٧٢) .

---

(٧٠) نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر سليمان الأشقر/127.

(٧١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر سليمان الأشقر/127.

(٧٢) التبشير والاستعمار للخالدي /66.

القضية الخامسة : الاستعمار

تعريف الاستعمار :

أ – في اللغة : فرض السيادة على الأرض واستغلالها(٧٣) .

ب – في الاصطلاح : سيطر ة دول الغرب على دول الشرق ، أ ي العالم الإسلامي بقصد الاستيلاء على خيراته والسيادة على أهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالحهم(٧٤) .

تاريخ الاستعمار :

كان أول من نادى بالحروب الصليبية على المسلمين (البابا أوربان الثاني) الذي تولى كرسي البابوية سنة 1088م ، ومهد لهذه الحروب ، وحشد لها الجموع من رجال الدين والساسة والعامة ، وأجج نارها في أصقا ع أوروبا ، وقد امتدت ما يقرب من تسعة قرون منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامي التي قادها بطرس الراهب سنة (491هـ ـ 1097م) وتمكن من السيطرة على الأراضي المقدسة في بلاد الشام ، إلى الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع سنة 652 ـ 1249م ، الذي أُسر في معركة المنصورة سنة 1250م ، ونبّه إلى عدم جدوى الصِّدام العسكري مع المسلمين في ذلك الحين ونادى بالغزو الفكري لعقيدتهم وأخلاقهم وفكرهم .

وقد استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين في المشرق استتراف جميع القوى البشرية والمادية في منطقة الشام ومصر ، وفرض سيادتها على أجزاء من البلاد الإسلامية منها بيت المقدس وما حوله من الأراضي المباركة ، إلا أن الله هيأ لهذه الأمة أسرة آل زنكي التي تمكنت من قيادة المسلمين لمواجهة الصليبيين وهزيمتهم وتوحيد الأمة الإسلامية ابتداءً من نور الدين محمود زنكي المتوفى سنة (569 هـ) وانتهاءً بالقائد صلاح الدين الأيوبي الذي كسر شوكة الصليبيين واستعاد بيت المقدس سنة (583هـ ـ 1187م) في معركة حطين ، ويمكن القول إن هذه الفترة الزمنية اتسمت بروح التحدي والمقاومة والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله(٧٥) ، التي اعترف بها بعض الكتاب الغربيين مدركين أنها السد المنيع أمام تحقيق الصليبيين أهدافهم ، يقول (شتر) : (جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض

---

(٧٣) المعجم الوسيط / 627 .

(٧٤) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود / 167 .

(٧٥) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري / 66 .

المقدسة من أيدي المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك وأروع العهود في العصور الوسطى كلها ، ولكن ذلك الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود ع يتدة من التعصب الإسلامي)(٧٦) .

وباءت الحملات الصليبية بالفشل ، وارتدت على أعقابها خائبة ، ولم تلبث الأمة أن تولت قيادتها الدولة العثمانية التي حفظت العالم الإسلامي من أخطار محاولة الغزو العسكري الغربي ؛ بل عملت على توسيع رقعة البلاد الإسلامية ونشر الإسلام في أوروبا ، حتى تمكنت من فتح القسطنطينية قلعة الدولة الرومانية الشرقية(٧٧)عام 1453م ، فهال ذلك أوروبا وقض مضجعها ، وضاقت ذرعاً ساعية إلى بحث هذا الأمر الذي تعارفوا عليه بالمسألة الشرقية للوصول إلى خطة توقف هذا الامتداد الذي بلغ فِيَّنا واستولى على جنوب فرنسا ، وسيطر على غالب ما يُعرف بأوروبا الشرقية ، فكان لابد من التفكير في الغزو العسكري من جديد بعد أن هيأت له العوامل الأخرى من تبشير واستشراق الأرضية الملائمة ، وبعد أن دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين مغترين ببهرج التقدم المادي في أوروبا ، وبعد أن شاخت دولة الخلافة العثمانية ، وظهر عليها مظاهر الضعف ، فكانت الخطة الغربية تقتضي تقطيع جسم الخلافة الإسلامية أولاً ثم الإجهاز عليها ، فتنافست الدول الأوروبية في استعمار العالم الإسلامي ، وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا وروسيا متخذ ة أسلوب الحماية العسكرية قبل الحرب العالمية الأولى وسيلة للتمويه على الشعوب الإسلامية وتفادي روح المعارضة ، ورغم أن هذه المعاهدات كانت تظهر على أنها بين طرفين متساويين لكن الحقيقة هي سيطرة الدول المستعمرة وسيادتها عسكرياً وفكرياً على أهالي وأراضي البلاد المستعمرة ، ثم اتخذت هذه الدول أسلوب الوصاية والانتداب بعد الحرب العالمية الأولى لتكتسب الشرعية في تنفيذ مخططاتها ، وقد سيطرت الدول الأوروبية على العالم الإسلامي ، على النحو الآتي بيانه :

1 ــ بريطانيا : استعمرت ماليزيا وشبه القارة الهندية وساحل الخليج العربي وال يمن ومصر والسودان وجزءاً من الصومال وأريتريا وقبرص ونيجيريا ، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها العراق والأردن وفلسطين .

2 ــ فرنسا : استعمرت مالي وتشاد والسنغال وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وجيبوتي ، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها سوريا ولبنان .

3 ــ إيطاليا : استعمرت ليبيا وجزءاً من الصومال .

---

(٧٦) التنصير والاستعمار لعمر فروخ ، و مصطفى خالدي / 114 .

(٧٧) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي لأنور الجندي / 383 .

4 ــ روسيا : استعمرت تركستان والأراضي الإسلامية في الأورال وحوض نهر الفولجة وشبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز إلى شمال إيران .

5 ــ أسبانيا : استعمرت الرّيف المغربي والصحراء المغربية .

6 ــ هولندا : استعمرت أندونيسيا (٧٨) .

وقد استخدمت الدول الاستعمارية كل ما لديها من وسائل القوة لمواجهة كل من يقاومها ، ويعيق سيطرتها على العالم الإسلامي ، وتحقيقها أهدافها الصليبية التي صرح بها عدد من قادة الدول الاستعمارية ، منهم (اللنبي القائد العسكري الانجليزي) الذي قال في خطبته لما دخل القدس : (الآن انتهت الحروب الصليبية) ، وفي تهنئة (لويد جورج وزير خارجية بريطانيا للنبي) لإحرازه النصر سمى هذه الحرب بالحرب الصليبية الثامنة(٧٩) ، وعندما دخل الجنرال (غورو القائد العسكري الفرنسي) دمشق طلب أن يدلوه على قبر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ؛ فلما وقف على قبره ركله بقدمه قائلا : (ها قد عدنا يا صلاح الدين)(٨٠)

أهداف الاستعمار :

1 ــ هدف صليبي (هدف للكنيسة) : يحقق ما عجــزت عن تحقيقه الحملات الصليبية إبان القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وهو السيطرة على البلاد الإسلامية وانتزاع بيت المقدس من المسلمين والذي كانت الدول الغربية في القرن التاسع عشر الميلادي تسعى إليه ، كما أوضح ذلك القائد البريطاني (أدموند هنري ألنبي) الذي قاد الحملة البريطانية من مصر لغزو فلسطين سنة 1917م ، حين استولى على بيت المقدس ، وقال كلمته المشهورة : (الآن انتهت الحروب الصليبية)(٨١) .

2 ــ هدف سياسي (يتعلق بالدول والحكام أنفسهم) : نشأ عن التنافس بين الدول الغربية في السيطرة على المواقع الاستراتيجية ومناطق الثروات المعدنية والزراعية وبسط النفوذ على أكبر قدر من المساحة ، ونظراً لما تتمتع به البلاد الإسلامية من موقع استراتيجي يقع في وسط العالم ويتصل بالقارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ويتحكم بممرات الملاحة العالمية من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويمثل مضيق جبل طارق ومضيق باب المندب ومضيق هرمز أهم بوابات الملاحة العالمية

---

(٧٨) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري / 81 ـــ 82 .

(٧٩) قادة الغرب يقولون /26 .

(٨٠) القومية والغزو الفكري /84 .

(٨١) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود / 167 .

التي سيطرت على الحركة البحرية والتجارية والعسكرية ، ولاتساع العالم الإسلامي فهو يحتوي على معظم المعادن والحاصلات الزراعية التي تعتمد عليها المدنية الحديثة مما جعل البلاد الإسلامية في مطمع ا للدول الغربية والاستعمارية ولوغلبتها .

3 ــ هدف اقتصادي : نتج عن الثورة الصناعية التي نشأت في أوروبا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي وأحدثت سلسلة من التغييرات في أساليب الصناعة منها الاعتماد على الآلات في الإنتاج ، وفي القرن التاسع عشر الميلادي زاد الإنتاج زيادة هائلة فاحتاج أصحاب المصانع إلى المواد الخام والقوى العاملة كما احتاجوا إلى الأسواق لتصريف منتجاتهم ، ولم تتمكن الدول الأوروبية من سد تلك الحاجات كليا مما دفعها إلى الاستعمار للحصول على المواد الخام وفتح أسواق جديدة أمام منتجات صناعتها ، فكان العالم الإسلامي هدفاً تنافست عليه الدول الأوروبية الصناعية(٨٢) .

4 ــ هدف عدائي : يعود إلى ما انطوت عليه قلوب النصارى من حسد وبغض للأمة الإسلامية التي ناصبوها العداء منذ نشأتها ، وعملوا على القضاء عليها بشتى الوسائل العسكرية والفكرية عن طريق الحملات الصليبية ثم الاستشراق والتنصير ، وبعد الاستعمار حلقة أخرى في سلسلة حلقات العداء المتتالية ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٠٩ ، لذا فإن الدول الاستعمارية سعت إلى مسح الإسلام من قلوب المسلمين والاستخفاف به وبعلمائه بوسائل مباشرة وغير مباشرة ، وتغريب الأمة وتعطيل أحكام الإسلام ومحاصرة التعليم الديني ومحاربة كل المظاهر المتصلة بالإسلام ، وإخماد كل الحركات الإصلاحية الداعية إلى الوحدة الإسلامية أو إلى العودة إلى الإسلام من جديد.

آثار الاستعمار الثقافية :

1 – تغريب العالم الإسلامي ؛ فقد كان الغرب يسعى في مستعمراته ، وفي مناطق نفوذه إلى نشر ثقافته بين المسلمين ، وحملهم عليها ، وذلك رغبة منه في جسر الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين نتيجة لاختلاف الثقافتين ونتيجة للمرارة التي يشعر بها المسلم تجاه المحتل لبلاده ، وصيانة لمصالحه ؛ فقد نشأت عند ساسة

(٨٢) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري 77/1 .

الغرب ومخططي الاستعمار قاعدة سياسية حديثة تدعو إلى الاعتماد على الصداقة في حفظ المصالح الاقتصادية بدلا من الاعتماد على القوة ، وهو ما يسمونه بالتغريب(٨٣) .

2 – إحياء النعرات القومية ، كالطورانية في تركيا والفرعونية في مصر والبابلية في العراق والآشورية والفينيقية في الشام ، والبربرية في شمال أفريقيا والقومية العربية وتشجيعها لتكون بديلاً عن الفكر الإسلامي وإشغال الأمة بتمجيدها والافتخار بها ، مع تجهيل المسلمين بتاريخهم الإسلامي المجيد.

3 – زرع أسباب الفتنة والخلاف بين المسلمين مثل مشاكل الحدود بين البلاد الإسلامية ، مثل مشكلة كشمير المتنازع عليها بين الهند وباكستان لتبقي الفتيل الذي يمكن إشعاله .

4 – حماية الإرساليات التنصيرية و دعمها للقيام بعملها وتحقيق أهدافها وتبرير إفساده ا لعقائد المسلمين ، وكأن الاستعمار بذلك يرد له ا اليد التي سلفت له ا عنده ، بل إنه شجع على اعتناق النصرانية وحمل الجنسية الأجنبية ورتب على ذلك كثيراً من الامتيازات(٨٤) .

---

(٨٣) أزمة العصر لحمد محمد حسين / 175 .

(٨٤) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود / 170 .

القضية السادسة : التغريب

تعريف التغريب :

أ – في اللغة : مصدر من غَرَّب ، يقال : غرب في الأرض أي سافر سفرا بعيدا ، أو اتجه نحو الغرب(٨٥) .

ب – في الاصطلاح : إعادة صياغة ثقافة العالم الإسلامي وفق ثقافة الغرب وحضارته. والتغريب يعد تيارا فكريا ذا أبعاد سياسية واجتماعية وفنية ، يهدف إلى إلغاء شخصية المسلمين الخاصة ، وجعلهم أسرى الثقافة الغربية(٨٦).

تاريخ التغريب :

ظهرت بدايات التأثر بمظاهر الحضارة الغربية في أواخر عهد الخلافة العثمانية عندما أرادت تطوير جيشها على وفق النظام الأوروبي ، فقد أمر السلطان محمود الثاني عام 1826م العسكريين بلبس الزي العسكري الأوروبي ، كما استقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربية والبحرية ، ولم يقتصر الأمر على هذا الاتجاه الذي لا غضاضة فيه إذ هو في نطاق ما يبحه الإسلام من الاستفادة من الوسائل الحديثة والنظم النافعة دون مساس بثوابت المجتمع الإسلامي ومبادئه وقيمه ؛ بل اتخذ التغريب اتجاها آخر لنشر أفكاره وحمل الناس على تبني مفاهيمه عن طريق إنشاء مدارس الإرساليات التنصيرية بلبنان ومصر التي كانت مفتوحة لأبناء المسلمين للتعلم وفق منهج التعليم الغربي ، وكان نصارى الشام من أوائل من اتصل بالإرساليات التنصيرية ، وسارع إلى تلقي الثقافة الفرنسية ، كما أظهروا إعجابهم بالغرب ، ودعوا إلى السير على طريقه ، وقد ظهر ذلك جليا في مقالاتهم التي كتبوها في الصحف التي أسسوها وعملوا فيها مثل صحيفة الجنان والمقتطف في بيروت ، وجريدة المقطم والأهرام التي رأسوا تحريرها في القاهرة ، وعن طريق التشجيع على البعثات إلى أوروبا ؛ فقد قام محمد علي والي مصر بابتعاث عدد من خريجي الأزهر إلى أوروبا من أجل التخصص ، وتوسع في

---

(٨٥) المعجم الوسيط /647 .

(٨٦) الموسوعة الميسرة ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي 145/1.

ذلك الخديوي إسماعيل بهدف جعل مصر قطعة من أوروبا ، وكان ممن ابتعثوا من مصر إلى باريس عام 1826م رافع رفاعة الطهطاوي الذي أقام فيها خمس سنوات ، ومن تونس ابتعث إلى باريس عام 1852م خير الدين التونسي الذي أقام فيها أربع سنوات ، وعاد كل منهما محملا بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس علماني عقلاني ،

وقد أثر التيار التغريبي في فكر كثير من القادة والمفكرين ، وتمكن من إعادة صياغة مفاهيمهم وفق الثقافة الغربية حتى ظن هؤلاء أن التقدم الذي حققه الغرب عائد إلى تصوراته ومفاهيمه وأسلوب حياته البعيدة عن الدين مما دفعهم إلى الدعوة إلى اللحاق بالحضارة الغربية والاندماج في ثقافة المجتمع الغربي ، يقول آغا أوغلي أحمد أحد زعماء الكماليين في تركيا : (إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئتهم ، والنجاسات التي في أمعائهم) (٨٧) ، وممن نادى بالسير على طريق الحضارة الغربية عميد الأدب العربي آنذاك طه حسين واصفا إياها بأنها (واضحة بينة مستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب) (٨٨) ، ومن المؤسف أن دعاة التغريب من المتأثرين بالحضارة الغربية قد جهلوا أو تجاهلوا أن سبيل الحضارة والرقي لم يكن يوما ما ولن يكون بالذوبان في حضارة الغرب وثقافته(٨٩)والتخلي عن الثقافة الإسلامية .

أهداف التغريب :

١. نقض عرى الإسلام وإبعاد المسلم عن دينه : لقد كان الهدف إضعاف شأن الإسلام في نفوس المسلمين ، وإزاحته من قلوبهم وحياتهم ، وقطع صلتهم بمصادره ولاسيما القرآن الكريم ، يقول (الماريشال بيار ليوتي) قائد جيش الاحتلال الفرنسي في المغرب : يجب أن نبعد سكان المغرب عن كل ما يطلق عليه لفظ الإسلام ، ولا نترك القرآن يثبت في أذهانهم (٩٠) ، وكذلك تجهيل المسلمين باللغة العربية حتى تنقطع صلتهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية ومؤلفات السلف من علماء المسلمين ، يقول الحاكم الفرنسي للجزائر في ذكرى مرور مائة على الاحتلال : (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا

---

(٨٧) مؤامرة فصل الدين عن الدولة لمحمد كاظم حبيبي /69 .

(٨٨) مستقبل الثقافة في مصر فقرة 9 .

(٨٩) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر /81-82 .

(٩٠) مجلة المنار المجلد 31 / 300 ..

يقرؤون هذا القرآن ، ويتكلمون العربية ، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ، ونقتلع اللسان العربي من أفواههم)[٩١] ، ويقول (وليم جيفورد بالكراف) : (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نري العربي حينئذ يتدرج في سبل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه [٩٢].

٢. تفتيت الوحدة الإسلامية : سعى الغرب إلى إيقاظ النعرة العنصرية وصرف المجتمعات الإسلامية عن الإسلام بصفته عاملا لوحدتهم ، وكان المدعو (توماس إدوارد لورنس براون المسمى : بلورنس العرب) دورا حاسما في تنظيم هذه المؤامرة على الوطن العربي [٩٣] كما يحدث بنفسه عن خواطره حين بدأ يتنقل بين العرب ، يقول (أخذت طول الطريق أفكر ... وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني ؟ وبمعنى أوضح ، هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام ، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني ؟) [٩٤] لقد كانت هذه الخواطر تنبيء عن عرض للتوقعات إزاء سبيل تحقيق أحد أهداف الغرب الرئيسية كما يصرح بها (لورنس العرب) في قوله : (أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ..)[٩٥].

٣. إقصاء أنظمة الحكم والإدارة والتعليم المستمدة من الإسلام ، وإحلال الأنظمة الغربية مكانها : عمل الغرب على إبعاد أنظمة الحكم والإدارة وبرامج التعليم عن الإسلام وشريعته وأساليبه التعليمية والتربوية من خلال ما سماه : نهضة الإسلام الحديثة ، يقول (ريني مِيِّي) المقيم العام الفرنسي بتونس في مؤتمر شمال أفريقيا عام (1326ه – 1908م) : النتيجة التي يسعى الغرب إلى تحقيقها هو تفكيك ما بين العقائد وأصول الحكم[٩٦]، ويقول المستشرق (جب) مشير إلى أهمية التعليم في هذا الصدد : (السبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المباديء الغربية وعلى التفكير الغربي . والأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المباديء الغربية وعلى التفكير الغربي .. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ،

---

(٩١) مجلة المنار المجلد 9 / 11 عام 1362هـ .

(٩٢) الغارة على العالم الإسلامي /93 .

(٩٣) الأعلام للزركلي 94/2.

(٩٤) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 107/2 .

(٩٥) الوقائع السرية في حياة لورنس العرب /52 .

(٩٦) الحركة الأدبية والفكرية لابن عاشور /108 .

وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين) (٩٧) ، ولتحقيق هذا الهدف تم تسليم مواقع التأثير المتمثلة بالحكم والإدارة وسدة التعليم في البلاد الإسلامية للمنبهرين من المسلمين بالحضارة الغربية ، المتخلقين بأخلاق أوروبا ، لأنهم أقدر على إحداث تغيير يتفق مع الثقافة الغربية ؛ هذه الفئة هي التي تصلح وفق تقرير اللورد (كرومر) المندوب البريطاني في مصر لأن تحكم إذ (أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر ، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية ؛ ... أن المتفرنجين من المصريين ... أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الانجليزية)(٩٨) .

٤. إعادة بناء فكر المسلمين على أساس تصورات الفكر الغربي ومقاييسه ، ومحاكمة الفكر الإسلامي وفق هذه التصورات والمقاييس بهدف سيادة الحضارة الغربية(٩٩) ، وقد أثمرت هذه المحاولة بكثرة التناول للقضايا والمفاهيم ، وتنوع الأساليب حتى أحدثت انقلابا فكريا في تصورات الطلائع المثقفة من المسلمين ومفاهيمها ، وتمكنت من عزلهم أو تحييدهم عن مواجهة هذه المحاولة ؛ بل انجرف بعضهم مع التيار التغريبي فصاروا يهاجمون دينهم ، ويسخرون منه ، وكان هذا إيذانا بقيام مدرسة فكرية جديدة تنطلق مما جاءت به الحضارة الغربية من أفكار وفلسفات ونظريات في ميادين الحياة ، وكان عماد هذه المدرسة تفسيرا عصريا يلائم الفكر الغربي ، ويعمل على إيجاد نقط التقاء بين الثقافتين الإسلامية والغربية رغم تباينهما ، أو على الأقل تباعدهما ، كما لجأت هذه المدرسة إلى عد بعض الأحكام مثل تعدد الزوجات والطلاق والحدود والربا مثالب تحتاج إلى تعديل وفق ما يقتضيه التطور البشري وتجديد الإسلام في رؤية حديثة يظهر فيها أثر ضغط الفكر الغربي على العقول المهزومة المنبهرة بالحضارة الغربية(١٠٠) .

٥. صبغ حياة المسلمين في جميع جوانبها ومرافقها بصبغة الحضارة الغربية ، وتغيير عاداتهم بما يتوافق مع عادات المجتمعات الغربية ، ولا بأس ببقاء الانتماء إلى الإسلام اسماً في حين يستسلم الواقع في كل مظاهره للفكر الغربي ، مما أدى إلى إيجاد مجتمعات إسلامية تتعامل و فق العادات والتقاليد الغربية ، وكان من مظاهر ذلك : الاختلاط بين الجنسين وإلغاء الحجاب عن المرأة ، والتحلي بالآداب الغربية في التحية والطعام واللباس ونحو ذلك .

---

(٩٧) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 216/2.

(٩٨) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 261/1-262 .

(٩٩) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر /80 .

(١٠٠) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للدكتور عبد الستار سعيد /92-93 .

هذه أبرز أهداف التغريب ، على أن أخطرها وأعظمها ضررا ما كان متصلا بالدين نفسه ، وما كان يقصد منه فك عرى المجتمع ونقض الأسس التي يقوم عليها ، وإقحام ذلك كله في عقول الناس وحياتهم باسم التجديد والتطوير(١٠١) .

وسائل التغريب :

١. الوسائل المباشرة :تم تكريس التغريب بشكل مباشر بعد إخضاع غالب البلدان الإسلامية لسلطان الحكم العسكري والسياسي والثقافي الغربي ، والقضاء على هويتها الذاتية وتوجيهها الوجهة الغربية ، فقد أرخى الاحتلال للمنصرين العنان ، فصاروا يسرحون ويمرحون ، ويستخدمون كل الوسائل لتنصير المسلمين أو تحقيق ردتهم ، ومكنهم من بناء الكنائس والمدارس والمستشفيات لتحقيق أغراضهم ، كما دعم المستشرقين وسهل مهمتهم لجمع المعلومات عن الشرق الإسلامي ونشر مطبوعاتهم المغرضة بهدف تشويه صورة الإسلام في نفوس أهله ، كما أسس المدارس المدنية التي تمجد الفلسفة الغربية وتجهل المسلمين بدينهم ولغتهم وتاريخهم ، وأفسح المجال للأقليات غير المسلمة لتعمل ضد وحدة المسلمين ، وأدخل القوانين الأوروبية وأقصى العمل بالشريعة في المحاكم ، وشجع على نشر الإباحية والعادات والموضات الغربية وغير ذلك مما قام به الاحتلال الأوروبي لتغريب الشعوب الإسلامية ولم يزل العالم الإسلامي يعاني من آثارها المدمرة لهويته وثقافته الإسلامية(١٠٢).

٢. الوسائل غير المباشرة :

أ –تقديم الخبرة والمشورة : اتخذ من تقديم الخبرة والمشورة غطاء للتدخل في السياسات والأوضاع الداخلية للعالم الإسلامي عن طريق السفراء والقناصل والخبراء الذين يعدون طلائع للتغريب في كثير من البلدان الإسلامية كما يظهر من عملهم ، فقد قام الضابط الفرنسي (الكونت دي بونجال) الذي قدم إلى استانبول لتقديم الخبرة العسكرية ضمن مشروع تطوير القوة العسكرية للدولة العثمانية عام (1130هـ – 1718م) بالتواصل المباشر مع الطبقة الحاكمة لتثقيفهم في المسائل السياسية والتقاليد الدبلوماسية وحثهم على الانفتاح على أوروبا ، وتحديث مؤسسات الدولة على النمط الغربي ، وهو النهج الذي استمر وتعزز بالتدريج حتى وقعت تركيا في براثن التغريب ، وهذا ما وقع في كثير من بلدان العالم الإسلامي بعد تحررها من الاستعمار حيث تم التدخل في رسم سياساتها الاقتصادية والتعليمية.

---

(١٠١) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 287/2.

(١٠٢) انظر كتاب : المغرب العربي .. دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة لصلاح العقاد . وذلك للوقوف على الحالة التي وصل إليها التغريب في دول المغرب العربي .

ب تجهيل المسلمين بلغتهم و نشر اللغات الغربية بينهم : اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن والسنة النبوية والتراث الإسلامي ولغة الصلاة وشعائر الإسلام ، لها أثر كبير في توحيد المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلدانهم لذلك كانت غرضا مباشرا للتغريب من أجل تجهيل المسلمين بتعاليم دينهم وصرفهم عنها ، فقد تم محاصرة تعليم اللغة العربية الفصحى في حلقات المساجد ومدارس التعليم الديني وتقليص تدريسها في المدارس المدنية والدعوة إلى لاستغناء عنها باللغة العامية التي تمثل مجموعة من لهجات تختلف من بلد إلى آخر ، ولا يفهم ألفاظها إلا أهلها ، وبذلك تنقطع صلة التفاهم بين بلدان العالم الإسلامي ، وكذلك عمد أصحاب التيار التغريبي إلى التوسع في تعليم اللغات الأوروبية لتكون نافذة لتسرب الثقافة الغربية إلى عقولهم وحياتهم (١٠٣)، ففي مصر دعا القاضي (ولمور) أن تكون اللهجة العامية لغة للعلوم والآداب ، وإلى كتابتها بالحروف اللاتينية ، وفي الجزائر ورد في تقرير رسمي للاحتلال الفرنسي عام (1368هـ – 1949م) ما نصه : (إن أهم ما يجب أن يسعى إليه الفرنسيون في الجزائر هو جعل اللغة الفرنسية دارجة وعاملة بين الجزائريين ... بل جعلهم فرنسيين من حيث اللغة)(١٠٤).

ت إنشاء المدارس المدنية : اتخذ التغريب من التعليم في البلدان الإسلامية وسيلة في صرف الناشئة عن انتمائهم الأصيل ، وتزويدهم بالأفكار والثقافة الغربية ، وتوجيههم نحو الولاء للحضارة الغربية ، وقد عبروا عن نياتهم في تغريب أبناء المسلمين عن طريق تعليمهم المباديء الغربية ، يقول اللورد (لويد) المندوب البريطاني على مصر في خطبته التي ألقاها في كلية فكتوريا بالإسكندرية عام (1345هـ – 1926م) : (ليس من وسيلة لتوطيد الرابطة بين البريطانيين والمصريين أفعل من كليةٍ تعلم الشبان من مختلف الأجناس المباديء البريطانية العليا ... فيصيروا قادرين أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا عليها ... وينمو فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافيا لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي) (١٠٥) ، ولخطورة هذه الوسيلة وقوة تأثيرها سارع الاحتلال إلى استثمار التعليم ورسم سياسته نحو تحقيق أهداف التغريب ، فقد رسم القس (دنلوب) سياسة التعليم في مصر ، ونفذها هو وتلاميذه من بعده ، ومن المؤسف أن هذه السياسة لا تزال لها آثار وذيول تطبع جوانب التعليم في مصر بطابع التعليم الغربي إلى الآن(١٠٦) .

---

(١٠٣) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور / محمد اليحياوي /290 .

(١٠٤) دراسات في اللغة والحضارة ، مجموعة دراسات /31 .

(١٠٥) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 286/2 .

(١٠٦) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للدكتور / عبد الستار سعيد/69 .

ث تحرير المرأة : نالت المرأة في الإسلام حقوقها منذ أن نزل الوحي، فهي تساوي الرجل في التكليف بالعبادة والقيام بشرع الله تعالى واتباع منهجه ، وتثبت لها جميع الحقوق المدنية ، فلها أن تبيع وتشتري وتمارس كافة العقود المباحة ، ولها الحق في التعلم والتعليم ، ولها حق العمل في حدود الحشمة والوقار ؛ إلا أن المرأة نظرا لمكانتها وتأثيرها القوي في الحفاظ على ثقافة المجتمع الإسلامي ونقل مكوناتها إلى الناشئة وتربيتها على مباديء الإسلام وقيمه كانت هدفا لدعاة التغريب الذين دعوا إلى سلخ المرأة عن دينها ودعوها إلى محاكاة المرأة الغربية ومجاراتها في العادات والتقاليد باسم تحرير المرأة ، وطالبوها بخلع حجابها ومخالطة الرجال الأجانب في ميادين التعليم والعمل ، كما دعوا إلى إباحة زواجها بالكفار ومنع تعدد الزوجات وتقييد الطلاق وإيقاعه في المحاكم ، وكان النصراني المتعصب (فهمي مرقص) أول من طرح هذه المطالب ، وذلك عام 1894م في كتاب له سماه (المرأة والشرق) (١٠٧) ، ومن المؤسف أن المرأة المسلمة التي كانت تنعم بكرامتها وحقوقها استخدمت باسم التحرير والتطور مصيدة لجمع المال ، ومطية لتحصيل المتعة ، ووسيلة للدعاية التجارية ؛ فنقلت من وظيفة تدبير المنزل ورعاية الزوج والأولاد إلى العمل الطويل بعيدا عن المنزل في المتاجر والمزارع والمصانع مما أدى كما يقول (برتداند راسل) إلى انحلال الأسرة وخروج المرأة عن التقاليد والأخلاق المألوفة وعدم الوفاء للزوج (١٠٨) ؛ إضافة إلى ترك الحمل أو الحد من الإنجاب ؛ بل بلغ التأثر بالغرب درجة التساهل في حفظ العرض والوقوع في الفاحشة والجرأة على قتل الأجنة بسبب استباحة العلاقات غير الشرعية ، لقد كانت جناية دعاة التحرير على المرأة كبيرة فقد خرجت كاسية عارية تعرض مفاتنها على الرجال ، وتحولت إلى سلعة تباع بأبخس الأثمان ، واضطرت إلى العمل في أعمال شاقة لا تناسب طبيعتها (١٠٩) في حين أن نفقتها في الإسلام مأكفولة لها بكرامة ، وبدون مشقة ، فهي تجب على الرجل سواء أكان أباها أم أخاها أم زوجها أم ابنها.

ج -السيطرة على الصحافة : التي كانت تعمل على تطوير الإسلام وإيجاد تفسير جديد له يخدم أهداف التغريبيين ، ويقوي الصلة بهم ، وهذا التطوير كان خطرا خفيا انقادت له مجتمعات المسلمين دون إدراك لوجه الخطر فيه ؛ إذ حقيقته إفساد لقيم الإسلام ومفاهيمه بإدخال الزيف على الصحيح ، وتَثبِيت الغريب الدخيل (وهو ثقافة الغرب وقيمه) وتأكيده ، وكانت السياسة المتبعة هي تمكين الأصدقاء المخدوعين بالحضارة من المسلمين ونصارى العرب من إدارة هذه الصحف ، ولا غرابة في الاهتمام

---

(١٠٧) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر /83-85 .

(١٠٨) حقوق المرأة للدكتور / سعيد رمضان البوطي /36-37.

(١٠٩) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر /84 - 85.

بالصحافة فهي كما يقرر (جب) أقوى أدوات التغريب ، وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي ، ولاسيما أن مديريها ينتمون في معظمهم إلى من يسميهم التقدميين ؛ ذلك أن معظم الصحف واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية ، ويقول : إنهم لا يلعبون دورا مهما في تشكيل الرأي العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب ، ولكن صحفهم تحتوي كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية في أوروبا ، ومقالات مترجمة من الصحف الأوربية . ثم هم يقفون الرأي العام على ما يجري في الغرب من أحداث وما يستحدث من آراء ، مبينين صدى ذلك في بلاد الشرق(١١٠).

ح -تطوير الفكر الإسلامي : مع بداية القرن العشرين تحول اهتمام المستشرقين في دراساتهم نحو تطوير الفكر الإسلامي ، وهي دراسات موجهة هادفة ، تساير تطور السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية ، واتجاهها إلى التغريب ، وهذا ما يوضحه (سميث) في كتابه : (الإسلام في التاريخ الحديث) الذي صدر عام 1957م من أن الإسلام يجتاز مرحلة تحول وتغير خطيرة ، وأن دراسة هذا التطور تعني المسلمين لكي يشاركوا في تطوير حياتهم مشاركة واعية ، ويرى أن ذلك ضروريا لترويج مفاهيم التحرر والعلمانية والعالمية(١١١) في العالم الإسلامي .

آثار التغريب :

استطاعت حركة التغريب التغلغل في كل بلاد العالم الإسلامي ، وترك بصماتها على كل مظاهر الحياة ، والتأثير في فكر المجتمع الإسلامي وسلوك أفراده ، وقد تفاوت حجم التأثر من بلد إلى آخر ، فظهر بوضوح في مصر وبلاد الشام وتركيا وأندونيسيا والمغرب العربي (١١٢) ، وكان من أبرز هذه الآثار ما يأتي :

1. زعزعة اعتقاد المسلم ودفعه إلى ترك الالتزام بأحكام الإسلام .
2. تكريس التبعية للغرب في كل توجهات المسلمين وممارساتهم .
3. منع تطبيق الشريعة الإسلامية .
4. إعاقة العمل نحو الوحدة الإسلامية .
5. إلغاء بعض عادات المجتمع الإسلامي وقيمه وإحلال بعض عادات الغرب وقيمه مكانها .

---

(١١٠) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين 217/2.

(١١١) أزمة العصر لمحمد محمد حسين /182.

(١١٢) الموسوعة الميسرة للندوة العالمية للشباب715/2.

القضية السابعة : العولمة الثقافية

يزداد الاهتمام العالمي يوما بعد يوم على مستوى الدول والشعوب بموضوع العولمة ومظاهرها المختلفة ، ويكاد هذا الموضوع أن يستحوذ على مساحة كبيرة من الرأي والفكر والحوار والنقاش في وسائل الإعلام والمؤتمرات والندوات الدولية والإقليمية ، وهذا يعني أن العولمة من القضايا الساخنة والمثيرة التي تشغل بال كثير من العلماء والمفكرين في الوقت الحاضر ، وتجعلهم يتطلعون إلى الإ سهام في توضيح حقيقتها وتجلية غموضها وكشف خباياها والإجابة ع ن ما يثار حولها من تساؤلات واستفهامات ، والتعرف على آثارها المستقبلية .

وإذا كانت العولمة قد برزت في مظهريها الاقتصادي والإعلامي فإنها الآن في مرحلة ترسيخ المظهر الثقافي الذي يعد أكثر صعوبة وحساسية من المظاهر الأخرى ؛ نظرا لم لامسته خصوصيات الأمم والمجتمعات ، ومصادمته لتعاليم الأديان وأنماط التقاليد والعادات التي تؤكد على الذاتية والانفراد .

تعريف العولمة :

أ- في اللغة : كلمة عولمة مصدر قياسي على وزن فوعلة مشتق من الفعل الرباعي عولم من العالم ، مثل حوقل حوقلة ، وهي كلمة تدل على التغير والتحول من حال إلى حال .

ب - في الاصطلاح : العولمة مصطلح جديد ، له عدة مرادفات ، هي الكوكبة والكونية الشاملة والحداثة .

هذا المصطلح لم يكن له وجود قبل منتصف عقد الثمانينات الميلادية من القرن الماضي ؛ إذ أنه قبل هذا التاريخ لم يكن له حضور خاص ؛ بل إن قاموس (إكسفورد) للكلمات الإنجليزية الجديدة أشار إليه لأول مرة عام 1991م واصفا إياه بأنه من الكلمات الجديدة التي برزت خلال التسعينات ، ثم إنه لو كان موجودا فيبدو أنه لم يسترع أي اهتمام أو انتباه ، أو أنه كان يعامل معاملة الكلمات العابرة التي لا تشير إلى مفهوم خاص أو واقع خاص ؛ لكن الحال تغير بعد التسعينات حيث بدأ يتكون له مفهوم لم يستقر بعد ، وصار من أكثر المصطلحات تناولا وتداولا ونقاشا(١١٣).

---

(١١٣) بحث : ظاهرة العولمة الواقع والآفاق للدكتور الحبيب الجنحاني ، مجلة المعرفة عدد محرم 1420هـ /50 .

ومع هذا التداول المتزايد لا بد من الاعتراف بأن العولمة من حيث الواقع تمثل ظاهرة سياسية واقتصادية وثقافية ؛ بل واجتماعية غير محددة المعالم ، وغير مجمع على صورتها ، ولا مجمع على هيمنتها ؛ ولكن يراد لها أن تكون سمة هذا العصر ، ومصير الشعوب ، وهو ما يمكن استقراؤه من خلال إمعان النظر في تعريفات العولمة الآتية : ــ

- هي : اتجاه الحركة الحضارية نحو سيادة نظام واحد ، تقوده في الغالب قوة واحدة .
- هي : استقطاب النشاط السياسي والاقتصادي في العالم حول إرادة مركز واحد من مراكز القوة في العالم(١١٤) .
- هي : تحويل العالم إلى قرية واحدة يتحكم فيها نظام رأسمالي واحد ، يلزمها بالتخلي عن ديانتها وقيمها وحضارتها شرطا لتحقيق النجاح في مجال تنمية الاقتصاد والسوق وجودة الأسعار(١١٥).

ومن تأمل هذه التعريفات واستقراء مدلولاتها يتبين لنا أن العولمة شاملة لكل النواحي الفكرية والعملية وإن ظهرت في صورة معينة أو شكل محدد ، وأنها ذات أبعاد متعددة ومستقبلية تتناول كل الشعوب ، وتسعى لأن تكون بديلا لكل موروث .

نشأة النظام الجديد (العولمة) :

بعد انتهاء الحرب الباردة بين القطبين أمريكا والاتحاد السوفييتي التي دامت أكثر من 45 سنة ، وإن لم يحدث بينهما حرب عسكرية مباشرة ؛ لكن وقعت حروب في العالم بسبب سياساتهما ، وتبعية بعض الدول لإحداهما بلغت أكثر من أربعمائة حرب إقليمية ، راح ضحيتها أكثر من عشرين مليون نسمة ، وفاقت خسائرها المادية خسائر الحربين العالميتين ــ حدد الرئيس الأمريكي بوش الأب في 1991/3/6م إطار هذا النظام في خطابه الذي ألقاه أمام قوات التحالف في الكويت بعد انتصارها في حرب الخليج الثانية قائلا : (إننا نرى الآن ظهور نظام عالمي جديد .... ، عالم تصبح فيه الأمم المتحدة بعد تحررها من الطريق المسدود للحرب الباردة قادرة على تحقيق الرؤية التاريخية لمؤسسيها ، عالم تحترم فيه جميع الأمم

---

(١١٤) العولمة جريمة تذويب الأصالة ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، مجلة المعرفة عدد / 48 ، ربيع الأول عام 1420هـ، والثقافة العربية وتحديات العولمة ، مجلة شؤون اجتماعية عدد / 61 ، عام 1419هـ ، ص / 140 .

(١١٥) مقالة : ذراع جديدة لأخطبوط الغزو الفكري لعبد الناصر محمد مغنم ، مجلة المجتمع عدد / 1324 ، 1419/6/23هـ .

الحرية وحقوق الإنسان) وقد ركزت وسائل الإعلام على تحليل عبارات هذا الخطاب ، وجعلته جديدا ، وضخمته كأنه الأمر الواقع الذي لا مفر منه(١١٦).

لعل الرئيس بوش كان يقصد من تحقيق الرؤية التاريخية قيام وحدة عالمية تتجاوز أسباب الصراع ، وتستبعد عوامل التناقض بين الشعوب . وهذا يقتضي التساؤل : علام تقوم هذه الوحدة ؟ إن كثيرا من المفكرين والمحللين يرون أنها ستقوم على أساس سيادة النموذج الرأسمالي ، ومن هؤلاء المفكر الياباني الأصل فوكوياما الذي اعتبر نهاية الشيوعية وسقوط الاتحاد السوفيتي نهاية للتاريخ بانتصار الرأسمالية(١١٧) وحضارتها وانفرادها بالهيمنة العالمية .

وإذا صح هذا الرأي فإن الوحدة التي سيسعى إليها النظام الرأسمالي ستؤدي إلى الحيلولة دون انفراد أي حضارة سوى الحضارة الغربية الانجلوسكسونية بهوية خاصة ومباديء وقيم ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة ، وتعبر عن نظرتها للحياة ، وتنم عن تصورها للوجود .

دوافع العولمة :

إذا كانت العولمة حديثة من ناحية الاصطلاح فإنها قديمة نوعا ما من الناحية العملية ؛ ذلك أن محاولة الهيمنة على الأسواق العالمية ونشر المفاهيم والقيم الغربية كانت من أهداف الدول الغربية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق فرض الوصاية والانتداب ، وبعد الحرب العالمية الثانية عن طريق الاستعمار والتنصير والاستشراق ؛ لكن أطماعها تزايدت بعد تهي ؤ الظروف الآتية : ـــ

١. ظهور الثورة التقنية التي سميت بالثورة الصناعية الثالثة ، وتمثلت في التقدم الصناعي الغربي الهائل ، ولاسيما في مجال الاتصالات والمعلومات والفضاء والحاسب الآلي والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية .

٢. تحرير التجارة الخارجية بين الدول عن طريق رفع القيود عن النشاط الاقتصادي وإبرام الاتفاقيات الدولية الضامنة لذلك كالاتفاقية الدولية العامة للتعريفات التجارية (الجات) التي سعت إلى فتح الأسواق العالمية أمام التجارة العالمية ، وإزالة كل القيود والحواجز أمام التجارة الدولية .

---

(١١٦) النظام العالمي الجديد من منظور إسلامي للدكتور علي محيي الدين القره داغي / 27 .

(١١٧) العولمة وعالم بلا هوية لمحمود المنير /14 .

٣. قيام شركات كبرى متعددة الجنسيات ، متنوعة النشاطات متميزة بضخامة نشاطها وإيراداتها ومبيعاتها ، مثل شركة (ميتسوبيشي) وشركة (جنرال موتورز) وغيرها من الشركات الكبيرة التي تمتلك أرصدة ضخمة وإمكانات مادية هائلة وقوة إنتاج واسعة ، فقد استطاعت هذه الشركات أن تفرض نفسها على الواقع الاقتصادي بحيث تعجز الدول من أن تحد من تأثيرها في تحقيق التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي .

٤. تنامي القوة العسكرية الغربية ولاسيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام 1991م ، وقد سبقه في عام 1989م تحول الدول الأوربية الشرقية من النظام الاشتراكي إلى النظام الاقتصادي الغربي ، واتباعها لسياسات الانفتاح على أسواق الدول الغربية وعلى الفكر الغربي .

ولا ريب أن هذه الظروف أسهمت على إظهار الدول الغربية على أنها قوة عالمية واحدة ، تقود نظاما جديدا يسعى إلى نشر نمط الحياة الفكرية الغربية بكل مفاهيمها ونظمها وقيمها بين المجتمعات(١١٨).

العولمة الثقافية :

لا ريب أن الثقافة ذات خصوصية إذ أن لكل أمة من الأمم مبادئ وقيما ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة ، وتعبر عن نظرتها للحياة ، وتنم عن تصورها للوجود ، فتحرص على استمرارها والمحافظة عل يها ، وحينما نستعرض سلسلة الأحداث الكبيرة التي غيرت تاريخ العالم من اشتعال حروب وقيام دول وحركات فكرية ونهضات علمية نجدها جميعها تهدف إلى اقتلاع فكرة وإحلال فكرة أخرى مكانها ؛ سواء أكانت الفكرة البديلة هي الأمثل أم الأسوأ ، وتمثل ظاهرة العولمة في الوقت الحاضر إحدى الحلقات الجديدة في هذه السلسلة الممتدة ، والتي يمكن القول بأن العولمة الثقافية أحد وجوهها وأكثرها تميزا ، وأعظمها خطرا ، وهي تعني إلغاء ثقافات الشعوب المتراكمة والموروثة لتحل محلها ثقافة النظام الواحد عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة من أجل إحداث التحول المطلوب (١١٩).

---

(١١٨) مقالة : العولمة في بعدها الثقافي للدكتور منصور زويد المطيري ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ / 35ـ36 .

(١١٩) مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ /20 .

وإذا كانت العولمة عرفت بعولمة الاقتصاد فهذا يرجع إلى كون الاقتصاد أول المنافذ إلى التأثير في حياة الشعوب والأداة الضاغطة على مصالحها ، ولا أدل على هذا من أن سقوط الاتحاد السوفيتي كان فشلا ذريعا للنظام الاقتصادي الشيوعي ، وهو في الوقت نفسه انتصار للاقتصاد الرأسمالي القائم على المنافسة الحرة والأسواق المفتوحة والهيمنة على المال العالمي من خلال الشركات الكبرى ومراكز المال الدولية .

وإذا كانت العولمة الاقتصادية ظهرت من خلال إنشاء الأسواق المالية والتجارية العالمية مثل السوق الأوربية المشتركة التي أنشئت في أواخر اكتوبر عام 1991م ، وبرزت عن طريق المؤسسات والشركات العالمية العملاقة عابرة القارات الخارجة عن سيطرة الدول ، مثل شركة (مي تستوبيشي) وشركة (جنرال موتورز) ذات النشاط التجاري الضخم ــ فإنها تستمد حيويتها من انجذاب العالم بأسره انجذابا كاملا لفكر النظام الرأسمالي الحر الذي حقق أكبر نجاحاته بعد تراجع النموذج الاشتراكي ، وتطبيق الدول الأوربية الشرقية الاشتراكية سابقا لمبادئ التجارة الحرة ، وهذا التوجه العالمي واضح من الناحية الاقتصادية ؛ إلا أن العولمة الثقافية دون ذلك تماما ، فهي الآن لم تبلغ ما بلغته العولمة الاقتصادية من التجليات في حياة الشعوب السلوكية والتطبيقات المادية التي ترعاها المؤسسات الاقتصادية العالمية ، وذلك يعود إلى أن العولمة الاقتصادية محصلة تطورات تجارية ومالية تسارعت في العقدين السبعينات والتسعينات من القرن الماضي(١٢٠) بخلاف العولمة الثقافية لم تزل مستعصية ــ في كثير من المجتمعات ومنها المجتمع الإسلامي ــ على النظام الدولي في التخلي عن ذاتيتها وهويتها الخاصة رغم محاولات الغزو الفكري القديمة التي كانت تسعى إلى تحقيق قدر من جذب الشعوب إليها عن طريق التقليد والتبعية المطلقة .

لكن لا ينبغي أن يغيب عمن كان في حالة ترقب لظاهرة العولمة أنه رغم هذا الاستعصاء فإن المرحلة القادمة من الجهود الغربية المبذولة في التحول العالمي ستتجه نحو الاهتمام بالعولمة الثقافية نظرا للعناية المتزايدة من الدول الغربية وبعض الدول الشرقية التي تسير في ركابها كاليابان بثقافة المعلومات والمعرفة العلمية نتيجة لما تحقق من تطور صناعي سريع ومذهل في العلم وتقنية وسائل الاتصال والإلكترونات ولم يزال ، هذا التطور في وسائل الاتصال حول مسار ثقافة العولمة الغربية من ثقافة الإنتاج إلى ثقافة المعلومات والمعرفة العلمية ، وقد أمكن ذلك بسبب هذه الطفرات الجذرية في العلم والتقنية (١٢١)، الأمر الذي

---

(١٢٠) بحث : العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها للدكتور عبد الخالق عبد الله ، مجلة عالم الفكر ، عدد اكتوبر 1999م /73 ــ 74 .

(١٢١) بحث : العولمة هل من رد إسلامي معاصر لإبراهيم أبو ربيع ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد الحادي والعشرون عام 1421هـ /33 .

جعل كثيرا من المفكرين الغربيين يحلمون ببناء امبراطورية العصر الالكتروني وشبكات التحكم والاتصال الجديدة التي سيصبح السوق المالي العالمي واهنا بالنسبة إليها بفضل تقنيات المستقبل(١٢٢) .

إن العولمة في اتجاهها الفكري (تطمح إلى صياغة ثقافة كونية شاملة ، تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني ، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية) (١٢٣). وإن هذه الثقافة مهما استخدم في صياغتها من صبغة علمية ومعرفية فإنها كما يراها عبد الوهاب المسيري صيغت داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي ، فهي تحمل معالم هذا التشكيل ، وتدور في إطار العلمانية الشاملة التي تدعو إلى إنكار القيم وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية وتطور العالم ، ولا يبعد أن تكون الصفة المعرفية لهذه العولمة وسيلة للتسلل إلى إرجاء العالم من أجل بناء الهيمنة الثقافية الغربية (١٢٤) التي تسعى الدول الغربية إليها ؛ وتعمل على تحقيقها عن طريق الاتفاقات الثقافية والاقتصادية وغيرها مع الدول الأخرى .

معالم العولمة الثقافية الغربية :

يتعرض العالم اليوم لرياح العولمة الثقافية الغربية التي أصبحت تهب على مجتمعاته عن طريق منافذ اتصال متنوعة وسريعة التأثير ، ناقلة معها أيد يولوجيات الفكر الغربي الحديثة ونظرياته الاجتماعية ، ومروجة لسلوكيات المجتمع الغربي وأنماط حياة أفراده ، لقد استهدفت هذه الرياح تفريغ مجتمعات العالم من ثقافتها لتحل محلها الثقافة الغربية مستغلة فرصة الانفتاح الثقافي الذي يشهده العالم حاليا والتهيؤ النفسي لدى الشعوب لهذا الانفتاح ، ومستخدمة في سبيل ذلك كل مكتسباتها العلمية والتقنية .

وتبرز معالم تأثير هذه العولمة على العالم وعلى العالم الإسلامي بصفة خاصة في الوقت الحاضر فيما يلي:

- التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية: تسعى العولمة إلى التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية ذات الخصوصية الشديدة لدى المجتمعات التي تكونت لدى كل منها حتى أصبحت نسيجا

---

(١٢٢) العولمة وعالم بلا هوية لمحمود المنير /119 .

(١٢٣) ظاهرة العولمة (الأوهام والحقائق) لمحيي محمد مسعد / 104 .

(١٢٤) مقالة : عولمة الالتفات بدلا من المواجهة ، مجلة المعرفة محرم 1420هـ / 20 .

يميزها عن الأخرى ، وقد قامت الأديان بدور بارز في تشكيل هذه الهوية ، كما أسهمت الأعراف والتقاليد في بلورة خصوصيتها لكل مجتمع ، وإذا كانت العولمة تستهدف هذا التذويب ، وتعمل على انهيار هذه الثقافات وذوبانها فإن هذا يعني أن الثقافة بما فيها ثقافتنا الإسلامية ستتعرض لمواجهة شديدة ، تنعكس سلبا على مجتمعنا المتمسك بجذوره الثقافية ، وستكون هذه الثقافة في محك الامتحان ، فالتي لا تملك مقومات الثبات ستكون أكثر قابلية للاجتياح الثقافي العولمي ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية أكثر من غيرها مقاومة للعولمة الثقافية الغربية لما تمتلكه من مقومات الثبات ، وفي مقدمتها الرصيد العقائدي النقي والسند الصحيح ، والماضي التاريخي المشرق والاتساق في تشريعاته مع الفطرة والعقل ـــ فإن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية ليست بحاجة إلى تكريس الجهود من أجل تفادي الارتطام مع حركة العولمة العالمية في مسارها الإلزامي ، وإلى المحافظة على هويتها الخاصة وصفتها الشخصية ، وهذا يستلزم أن نفتح عقولنا ، ونعطي الدراسة والبحث العلمي حقهما ، وسوف نجد فيهما ما يجعلنا الأقوى في ظل المواجهة الواعية لهذا المد العارم(١٢٥) .

● العمل على إبراز الثقافة الغربية بما تشتمل عليه من مفاهيم وقيم وقناعات ومواقف إنسانية مشتركة وعابرة لكل المناطق الحضارية ، وفرضها على ما سواها من الآراء والأفكار على أساس أنها الثقافة البديلة ، ولأنها تمثل الفلسفة التي ينطلق منها التصور للعولمة ، وتنبثق منها العلاقة بين جوانبها ؛ لذا فإن العولمة لا تستهدف إيجاد ثقافة عالمية جديدة ممتزجة من ثقافات مختلفة ، أو ناشئة من تفاعلها جميعا ؛ وإنما تستهدف نشأة عالم جديد بلا حدود ثقافية خاصة ، ينسلخ من هوياته الماضية ، ويتم فيه التبادل الحر للأفكار والمفاهيم عبر المجتمعات ، ويُمَكِّن من رواج المفاهيم الغربية وأذواق المجتمع الغربي ، وهي من أجل تحقيق هذا الهدف تسعى إلى أن تبلغ البشرية مرحلة من الحرية الكاملة التي تسمح بانتقال الأفكار والمعلومات والاتجاهات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي وبأقل قدر من القيود والضوابط(١٢٦) ، وذلك لتسهيل عملية الفرض عن طريق ما تمتلكه من وسائل اقتصادية وإعلامية وسياحية عالمية ذات محتوى فكري لا يمكن الوقاية من التأثر به بمجرد الاستفادة من الوسيلة ؛ إذ تضعف مع الزمن خاصية التحكم فيصبح الإنسان متأثرا بالمحتوى الفكري رضي أم أبى ؛ مما يقتضي تكثيف الجهود من أجل تحقيق حصانة كافية لأبنائنا وبصفة خاصة أجيالنا القادمة ، ووقايتهم من

---

(١٢٥) مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ /22 .

(١٢٦) بحث : العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها للدكتور عبد الخالق عبد الله ، مجلة عالم الفكر ، عدد اكتوبر 1999م / 76.

التقليد والتبعية المطلقة للحضارة الغربية ، تقوم على بناء العقيدة الصحيحة ، وغرس الفضائل والأخلاق الكريمة في النفوس ، والعمل على طهارة المجتمع من الفساد والرذيلة .

● استغلال المؤسسات الاقتصادية والوسائل الإعلامية والنشاط السياحي لترويج الفكر الغربي داخل المجتمعات بطريق غير مباشر ، فقد أصبحت المؤسسات الاقتصادية القائمة وسائل إلى للاحتكار والتعامل بالفائدة وتجاهل مشاعر الفقراء والمحتاجين وتنمية الفوارق بين فئات المجتمع وتعظيم صورة المال في النفوس والقضاء على الملكيات الصغيرة وتحويل الناس إلى عمال لفئة قليلة من ملاك رؤوس الأموال والشركات الكبرى ، الأمر الذي أعطى هذه المؤسسات القدرة على صياغة مثل هذه المعاني السيئة والقيم المادية ، وأصبحت وسائل الإعلام الفضائية أداة لتوجيه الشعوب والتأثير عليها في آرائها وأفكارها وأذواقها ، وصارت وسائل السياحة سبيلا إلى إلغاء الحدود وتقريب المسافات من خلال ما تهيأ للسائح من أسباب المتعة الجاذبة ، وطريقا إلى التلاقي البشري والتلاقح الفكري بين الشعوب ، وهذا يتطلب من المسلمين العمل على إيجاد البدائل الكافية ، وتوظيف الوسائل الجديدة الاقتصادية والإعلامية والسياحية من أجل تهيئة أجواء صالحة للدعوة إلى الله تعالى ونشر القيم الإسلامية والمحافظة على أخلاق الإسلام الكريمة ومبادئه السامية .

أخطار العولمة الثقافية :

قد يصعب حصر الأخطار التي تنشأ عن العولمة بصفة عامة ؛ بل قد يطول الحديث عن أخطارها الثقافية ، ولكن يمكن الاقتصار على أهمها ، وهي:-

● تغييب المبادئ الدينية والخلقية تحت وطأة تأثير الفكر الغربي والنظريات المنحرفة عن الدين (١٢٧) والقيم ، ومصادرة الانتماءات الدينية عدا الانتماء إلى النصرانية ، الذي لا نجد في حركة العولمة الغربية ما يدل على الإلزام بالتخلي عنه ؛ لأنه يعد نوعا من أنواع الحرية الشخصية في الفكر العلماني الغربي ، ذلك أن واقع الدول الغربية التي تروج للعولمة ، وتسعى إلى فرضها على الشعوب عن طريق مصادرة الانتماء الديني لم تزل على رغم علمانيتها تسير على الخط المسيحي في توجهها العام ، وفي مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية ، يدل على هذا قول الرئيس الأمريكي الأسبق (ريغان) أحد صناع السياسة الأمريكية الحديثة : (إن الدين يلعب دورا حاسما في الحياة السياسية

(١٢٧) العولمة الغربية والصحوة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن الزنيدي /33 .

لأمتنا)(١٢٨)، وأمام هذا القول يتبين أن الغرب لم يزل يؤمن بتأثير الدين في توجيه الحياة السياسية في الوقت الذي يسعى فيه إلى جعل المسلمين يتخلون عن دينهم ، ولا ريب أن هذا يزيد المسلم إيمانا بحقيقة قرآنية ، هي أن أهل الكتاب حريصون على ردته عن دينه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧ .

● فرض التأقلم مع الحضارة الغربية والذوبان فيها : ذلك أن العولمة ليست محصورة في الاقتصاد وحرية التجارة الدولية التي تعد المحرك الرئيس له ا ، وليست مجرد وسائل تنقل العقائد والقيم والنظم بشكل سريع يمكن لكل أمة الاستفادة منها في ترسيخ عقائدها وقيمها ونظمها ، وليست فكرة خاضعة لحرية الفرد أو حريات الشعوب بحيث يأخذ كل واحد ما يريده منها ، ويدع ما لا يريد ، وإنما هي تأقلم وذوبان مع معطيات الحضارة الغربية بخيرها وشرها ، وتوجه يعمل على إزالة كل الخطوط التي تفصل بين الأمم وتمايز بينها من عقائد وشرائع وقيم من أجل إقامة عالم واحد لغته المشتركة هي اللغة الإنجليزية ، وقانونه العام هو القانون الدولي الذي يرعاه ويعده الغرب ، ومقاييسه ومواصفاته وقيمه موحدة ، وهي مقاييس الحضارة الغربية ومواصفاتها وقيمها ، إنهم يدركون أن المحتوى الثقافي هو الذي يقود العالم ، ويشكل الشعوب(١٢٩).

● إخضاع القيم والأخلاق لقانون فكرة العصرنة والنسبية : ذلك أن العولمة الغربية لا تؤمن بأي قيم ثابتة ، ولا تعترف بوجود كليات ملزمة ؛ بل تتجاوز العقائد والموروثات والقيم الأصيلة إلى ما تقتضيه السيولة الفكرية التي تقوم عليها فكرة العصرنة والنسبية من التطور وعدم الثبات وقبر كل قديم وثابت من الأخلاق والقيم ، وهذا يعني أن العولمة محاولة لإخضاع كل القيم بما فيها القيم الثابتة والأصيلة وفق مفهوم العصرنة والنسبية ؛ وإن كان هذا لا ينفي وجود ثمة منظومة معرفية قيمية خفية متكاملة وراءها ، تسعى إلى الاعتلاء على غيرها من القيم الثابتة والتاريخية (١٣٠) ؛ إذ يستحيل أن تنشأ العولمة الغربية وتنمو بمجرد الصدفة والسذاجة ، فحقيقة العولمة الغربية أنها تهدم ما لدى

---

(١٢٨) النظام العالمي الجديد من منظور إسلامي للدكتور علي محيي الدين القره داغي / 27 .

(١٢٩) مقالة : العولمة في بعدها الثقافي للدكتور منصور زويد المطيري ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية /36 .

(١٣٠) مقالة : النظام العالمي الجديد ، عولمة الالتفات بدلا من المواجهة للدكتور عبد الوهاب المسيري ، مجلة المعرفة عدد محرم 1420هـ /20 .

الشعوب من قيم خاصة نابعة من الأديان والأعراف ، وتبني فوقها قيم الحضارة الغربية المضطربة والمتطورة .

الموقف من العولمة الثقافية :

مضت سنة الله تعالى في حصول التدافع بين الناس والصراع بين البشر ، وتمثل ظاهرة العولمة أحد صوره الحديثة ، قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ البقرة: ٢٥١ ، هذا التدافع يستلزم أن يتم بين طرفين مختلفين ؛ لكن لا يستلزم أن يرفض أحدهما ما عند الآخر كليا ، وعلى الخصوص لا يصح أن يقبل ما عنده كليا ؛ لأن القبول يتنافى مع معنى التدافع المقتضي للرفض ولو جزئيا .

إن اتخاذ المسلمين موقفا من العولمة في ظل التدافع القائم بين الحضارات ، ولاسيما مع الدول الغربية التي تقود هذه العولمة ــ يحتاج إلى حكمة ووعي ، فليس القبول المطلق للعولمة التي تفرضها هذه الدول على الشعوب الإسلامية صائبا ؛ لأن فيه انسياقا وتعجلا وتجاهلا لمنطق العقل الذي يقتضي الانتفاع بما فيها من إيجابيات وتفادي ما فيها من السلبيات ، وليس رفض العولمة جملة صحيحا أيضا ؛ لأنه مناف للحكمة ، ويعرض الشعوب الإسلامية لضرر أكبر ؛ إن قرار الرفض أسهل ما يمكن اتخاذه ، ولكنه أصعب ما يمكن التعايش معه مستقبلا ، ذلك أن ظاهرة العولمة من الناحية الواقعية تنامت وأصبحت تمثل صورة جديدة من العلاقات بين الدول والأمم والشعوب ، من يرفضها سيبقى معزولا عن العالم ، وسيحرم من كل عطاءات الحضارة الحديثة ، وإذا كان أحد قد اتخذ قرار الرفض عن قناعه فليعلن أنه ليس بحاجة إلى الاستفادة من التقنية العالية وتبادل المعلومات وأجهزة الاتصال والأقمار الصناعية وأجهزة الطب الحديث والتنقيب الجيولوجي والإلكترونيات ، ومثل هذا الموقف يعني اتخاذ قرار يفرض عزلة قاسية على النفس والمجتمع الذي يخضع له ، ويعني كذلك التعرض لطائل الحصار الدولي الذي سيؤدي في النهاية إلى التنازل بالعزيز والنفيس في سبيل رفع هذا الحصار والتعايش مع الآخرين .

إنه يتعين على المسلمين رفض الانسياق مع العولمة فيما يتعارض مع دينهم وهوية أمتهم وإثبات خصوصيتها نظرا لأن العولمة تستهدف صهر الأمم والمجتمعات في بوتقة واحدة هي بوتقة الحضارة الغربية وعلى الخصوص الحضارة الأمريكية ، وإذا كانت الفوارق بين الحضارات الإقليمية طفيفة فإن الفرنسيين لم يزالوا وهم يشاركون الغربيين في محتوى الحضارة الغربية الانجلوسكسونية وفي قيادة العولمة ــ على توجس شديد من أن تفرض على حياتهم أنماط سلوكيات الحياة الأمريكية الخاصة ، وعلى خشية من مخاطر اجتياح الأنماط الأمريكية لمجتمعهم الفرنسي تحت مظلة العولمة ، يدل على تلك المواقف المتشددة التي أبدتها

الحكومة الفرنسية أثناء مفاوضات الجات في قطاع الخدمات ؛ نظرا لكون هذا القطاع يحتوي على جوانب ثقافية ، متكئين في تشددهم هذا على ما يمتلكون من بدائل اقتصادية مؤثرة تمكنهم من حماية ثقافتهم ، ولا ريب أن المسلمين لا يقلون وزنا وتأثيرا عن الفرنسيين إذا توفرت لديهم إرادة سياسية قوية تمكنهم من استثمار ما لديهم من ثقافة أصيلة تقوم على جوانب روحية عظيمة تحتاج إلى هدايتها البشرية جمعاء ، ومن ثروة بشرية كبيرة تزيد على مليار نسمة ، ومساحات جغرافية واسعة ومتنوعة الموارد ، وثروة معدنية مهمة تعتمد عليها الصناعة الأساسية العالمية ، وموقع استراتيجي يربط القارات ، ويتحكم بالممرات البحرية ، ويتسم بتنوع المناخ ، ويعد من أفضل المناخات للملاحة الجوية الدولية (١٣١) فإن هذه الإرادة لو وظفت توظيفا سليما لغيرت موقع المسلمين ، ونأت بهم عن التبعية لغيرهم ، بالغة بهم إلى موقع القيادة ، وفي أقل الأحوال جعلتهم في موقع الاحترام والمهابة بين الأمم والدول .

إن استثمار المسلمين لما يمتلكونه من عقيدة صحيحة لهي من أقوى العناصر المؤثرة في قلوب المجتمعات والشعوب ، ذلك أن الخواء الروحي المتفشي بين الناس وطغيان المادية المتسلطة وانتشار الأمراض الفتاكة الناشئة من فساد الأخلاق وغياب القيم ، ورواج المخدرات بين الأفراد ، وابتذال الجنس لهي من أهم الظواهر الفكرية والاجتماعية التي تعاني منها شعوب العالم ، ويعالجها الإسلام مخلصا هذه الشعوب من شرورها ، وواقعية الإسلام وعنايته بمصلحة الإنسان وبكل متطلبات تكوينه هي من أهم ما يساعد على سرعة انتشاره بالرغم من جاذبية المدنية الغربية المادية التي ابتليت مجتمعاتها بهذه الظواهر السيئة بسبب إهمالها للجانب الروحي والخلقي ، وستزداد سوءا مع العولمة ، ويمثل الإسلام – بما يشتمل عليه من صفاء العقيدة وتكامل التشريع وحسن الرعاية للعلم والحضارة وحماية الأخلاق وتحقيق التوازن بين متطلبات الإنسان في الحياة الروحية والعقلية والجسدية ـــ الصورة الصحيحة للعالمية أو العولمة التي اختارها الله سبحانه للبشرية ، عند ما جعل الإسلام خاتما للأديان والرسالات الصحيحة ، ومبطلا لما دونه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥ .

إن التأييد المطلق للعولمة الثقافية بحجة أن الانفتاح على الثقافات الأخرى أصبح من سمات العصر ، وأن الرفض المطلق لن يغني فتيلا في إيقاف المد الغربي الثقافي الزاحف على العالم الإسلامي ـــ نوع من الاستسلام الرخيص المتجاهل لطبيعة الدين الإسلامي والمتغافل عن تاريخ الأمة الإسلامية وثقافتها ، إن الموقف السليم يقتضي رفض العولمة الثقافية الغربية التي لا تؤمن بغير قيمها ، وتريد تذويب ثقافتنا

---

(١٣١) مقالة : العولمة الاقتصادية أهي حتمية أم مجرد خيار للدكتور عبد الواحد خالد الحميد /، مجلة كلية الملك خالد العسكرية / 29 .

الإسلامية ، ورفض كل ما يخالف ديننا وقيمنا الشرعية ، ورفض كل ما يمسخ شخصيتنا أو يبدل هويتنا ، ويقتضي ألا نكتفي بمجرد الرفض وحده ؛ بل لا بد أن نكون إيجابيين في الموقف بحيث نتبنى نهج المواجهة لعولمة المسخ الثقافي أو العدوان الثقافي ، وهذا يتطلب منا التشبث بهويتنا الثقافية الإسلامية ذات الخصائص المستمدة من عقيدتنا وديننا ؛ إن هذه الهوية هي الحصن الحامي لنا من لوثات الغرب وتحدياته العدوانية ، بل هي الدرع المنقذ للبشرية كلها مما تعانيه في ظل انتشار المادية وقيم الغرب ، وذلك راجع إلى ما تمتلكه من قيم العدل والحرية وحقوق الإنسان (١٣٢) ، ولعل تنامي الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي يجسد لنا مقدرة المسلمين على التصدي لهذا المسخ الغربي الفكري والعدوان الثقافي ، ويبين مدى تشبثهم بهويتهم الثقافية (لأن فعل العدوان الثقافي ــ كما يرى عبد الإله بلقزيز ــ لا يحتل المشهد وحده ؛ بل هو غالبا ما يستنهض نقيضه بسبب ما ينطوي عليه عنفه الرمزي من استفزاز لشخصية المعتدى عليه ، ومن تشبث بثقافته وهويته)(١٣٣).

لكن مع إدراك أهمية التصدي والمواجهة لا بد أن ندرك أن العولمة وضع عالمي جديد لا يمكن تجاهله ، ليست العولمة الثقافية فحسب ؛ بل جميع أنواع العولمة العلمية والاقتصادية والإعلامية والسياسية فهل بالوسع أن نرفضها جميعا ، ونقبل العيش في معزل عن العالم وحدنا ، لا نمتلك فيه القدرة على المواجهة والثبات على وضعنا الحالي الذي يعاني من التشرذم في المواقف السياسية ، ويفتقد الاستراتيجية الاقتصادية الموحدة والعملية ، ويتصف بالتأخر في السبق العلمي والتكنولوجي الحالي ، فما من سبيل أمامنا إلا سلوك موقف الانتقاء والوسطية .

---

(١٣٢) مقالة تسويق الاستهلاك ... للأستاذ أسعد السحمراني ، مجلة المعرفة عدد / 46 ص / 45 .

(١٣٣) مقالة : العولمة والهوية الثقافية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد الثالث ، عام 1998م / 99 .

القضية الثامنة: عالمية الإسلام والروابط البشرية

مفهوم عالمية الإسلام :

العالمية لغة : نسبة إلى العالم ، والعالم في اللغة : (الخَلق كله ، أو ما حواه بطن الفلك)(١٣٤) .

وتعني عالمية الإسلام : أنه دين للإنس والجن كافة ، وأنه ليس دينا خاصا لقومية معينة ، ولا لإقليم محدد ؛ بل هو لجميع الخلق من العقلاء مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وأوصافهم .

مستند عالمية الإسلام :

يستند مفهوم عالمية الإسلام على نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية ، يقول ابن تيمية : عالمية الإسلام (معلومة بالاضطرار من دين الإسلام ..... وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الأنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة)(١٣٥).

أولا – مستنده من القرآن الكريم : دلت آيات القرآن الكريم على الآتي :

1. أن الإسلام دين الحق ، نسخ الله به جميع الأديان السابقة ، وأظهره عليها ، قال الله تعالى في شأن الإسلام : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ الصف: ٩ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥.

2. أن محمدا صلى الله عليه والسلام نبي ورسول ، بعثه الله بشيرا ونذيرا ، ورحمة للعالمين من الأنس والجن ، قال الله تعالى في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

---

(١٣٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي 155/4 .

(١٣٥) الجواب الصحيح لمن بدل الدين المسيح 336/1 .

3.أن القرآن الكريم كتاب ذكر وهداية إلى كل من يبلغه من العالمين من الإنس والجن ، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ص: ٨٧ ، وقال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ الجن: ١ – ٢.

4.أن القرآن الكريم خاطب أهل الكتاب مبينا لهم أنهم مشمولون بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كغيرهم ممن جاءهم بشيرا ونذيرا ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٩.

ثانيا– مستنده من السنة النبوية : دلت السنة النبوية على الآتي :

1. أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة للعالمين عامة ، قال صلى الله عليه وسلم : (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)(١٣٦) .

2. أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختص بين إخوانه من الأنبياء عليهم السلام بأن بُعِث إلى الناس عامة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من قبلي ، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ...)(١٣٧).

3. أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل كتبا إلى عظماء زمنه يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وهذا دليل عملي على عالمية رسالة الإسلام ، منها كتابه إلى كسرى عظيم فارس : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ... وأدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، اسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)(١٣٨).

---

(١٣٦) رواه الحاكم في المستدرك 35/1 ، وقال : حديث صحيح ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد 257/8 : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(١٣٧) رواه مسلم في كتاب المساجد ، رقم 521 ، 370/1 .

(١٣٨) رواه الزيلعي في نصب الراية في كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عظماء الأمم ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم الفرس ، 420/4.

4-أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن دعوته تشمل كل من يسمع به من اليهود والنصارى ، قال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)(١٣٩).

الإسلام ليس دينا خاصا بالعرب :

ليس الإسلام دينا خاصا بالعرب وإن كان الله بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأنزل كتابه القرآن الكريم بلغتهم ، فذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء ، وهم بذلك كانوا أول المدعوين إلى الدخول في الإسلام ؛ إذ هداهم الله به من ضلال ، وجمعهم به بعد فرقة ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الجمعة: ٢ ، وإذا كان الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبدأ دعوته بإنذار عشيرته الأقربين ، قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ ، وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية ؛ فصعد الصفا ، فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا. فقال : أريتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم)(١٤٠) – فإن هذا لا يعني اختصاص عشيرته ، ولا قبائل العرب بالإسلام دون الناس ، وإنما يعني أن الله تعالى اصطفاهم لحمل رسالة الإسلام ، واختار لسانهم ليكون لغة القرآن الكريم ووسيلة فهمه ومعرفة عقيدته وشريعته ؛ لذا كان العرب أول من يتعين عليهم البشارة إليه ؛ لذا انطلقوا به إلى من حولهم من أمم يدعونهم إلى عبادة الله وحده ، وضربوا في الأرض ينشرون هذا الدين ، ويدعون الناس إلى مكارمه ، لغاية هدايتهم إلى الحق ، وتخليصهم من جور النحل الفاسدة والملل المحرفة ، بعد أن ذاقوا مرارة جور الأديان ، كما قال ربعي بن عامر لما وقع في الأسر جوابا على سؤال يزدجر بن شهريار بن كسرى عظيم فارس له في مجلسه : ما الذي ابتعثكم . قال : (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى

---

(١٣٩) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الخ ، رقم153، 134/1.

(١٤٠) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ ، رقم /4770 .

سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)(١٤١) .

ومما يدل كذلك على أن العرب لم يكونوا وحدهم من بين الناس غاية دعوة الإسلام أن القرآن الكريم لم يخاطبهم بخطاب خاص بهم ، فلم يقل : (أيها العرب) أو (يا عرب) ، ولم ينادهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الخطاب ، وكان نداؤه صلى الله عليه وسلم لبطون قريش في أول دعوته يمثل المرحلة الأولى للدعوة ؛ لكننا نجد القرآن الكريم يخاطب بخطاب عام ، فيقول : (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) و (يا أيها الإنسان) ، (يا أيها الذين آمنوا) ، يدخل فيه العرب كغيرهم ؛ بل هم من أول من يدخل في هذا الخطاب(١٤٢)، ويقصد بالأوامر والتكاليف ؛ لكون الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما أرسل أنذرهم ، والقرآن نزل بلغتهم .

مرتكزات عالمية الإسلام :

تقوم مرتكزات عالمية الإسلام على الآتي :

1.وحدة الرب والمعبود : الله سبحانه هو رب العالمين ، أي خالقهم ومالكهم ومربيهم ، لا يشاركه أحد في الإحياء والإماتة ، وفي تصريف الكون وتدبيره ، تجري سننه في خلقه ، وتحكم قوانينه المطردة حياتهم ، لا تغيير فيها ولا تبديل ، وإنما يخضعون لها دون تمييز ، أو محاباة (١٤٣)، قال تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦٢ ، وهذه الربوبية ثابتة بالأدلة الكونية وبالفطرة السليمة ، فالكون كله ينطق شاهدا على أن الله خالقه ومسخره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأعراف: ٥٤ ، وهذا الرب هو المعبود المستحق وحده للعبودية ، ذلك أن توحيد الله تعالى في عبوديته هو الغاية من وراء الإقرار بربوبيته سبحانه ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ٢١ ، واتخاذ شريك مع الله تعالى في أي نوع من أنواع العبادة مناف للتوحيد ومضاد

---

(١٤١) البداية والنهاية ، لابن كثير 7/ 39 .

(١٤٢) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام لصالح بن عبد الله العبود/223 .

(١٤٣) دعوة الإسلام لسيد سابق 144 .

له ، وضلال وذنب عظيم ، قال تعالى عن المشركين : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٧ - ٩٨ ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله ؟ . قال : (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) (١٤٤).

لقد دعا جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة الله وحده ، وهدم الأوثان والبراءة من الأنداد ، وكلهم جاءوا بهذه الدعاية الخالصة لله تعالى فكان ذلك منهجا سار عليه الأنبياء والمرسلون يتجه نحو جمع الناس على توحيد الله ، والنأي بهم عن الشرك الذي يفرقهم ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ الشورى: ١٣ ، فهو سبحانه الخالق المتصف بصفات الكمال ، المستحق للعبادة وحده ، قال تعالى منكرا على النصارى تحريفهم ما جاء به المسيح عليه السلام من التوحيد الخالص عندما جعلوا له ولدا وصاحبة : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٠١ - ١٠٣ .

وتأتي عالمية الإسلام في دعوته الناس إلى الإيمان برب واحد ، ومعبود واحد ، هو الله تعالى ، وأنهم كلهم أفراد وجماعات مهما اختلفوا في انتماءاتهم سواء في الافتقار إليه سبحانه والحاجة إليه ، لا يستغني عنه أحد منهم بحال من الأحوال ، سواء وحَدَّوه أم أشركوا معه ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فاطر: ١٥، وقال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

2. وحدة الأصل والمصير : ينظر الإسلام إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز فيما بين شعوبها وأفرادها في الأصل وطبيعة الخلق والمصير(١٤٥)، فهم ينحدرون من أب واحد ، هو آدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

---

(١٤٤) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢ ، رقم 4477.

(١٤٥) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان /121 .

كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١ ، وخلق الله تعالى آدم أبا البشر من تراب ، قال صلى الله عليه وسلم : (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)(١٤٦)، وبث الله من آدم الرجال والنساء الذين صاروا بالتكاثر شعوبا وقبائل ، لا فضل لبعضهم على بعض في أصل الخلق ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣ .

وقد خلق الله تعالى البشر وفق طبيعة واحدة لا تختلف ، فقد شاء الله أن يخلق الإنسان من طين ، وأن ينفخ فيه من روحه ، قال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ص: ٧١ - ٧٢، وأن يفطره على الاستعداد للخير ، والشر ، وللصلاح والفساد ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ الشمس: ٧ - ٨ ، وأن يفطره أيضا على التعلق بالحياة والميل للشهوات ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ آل عمران: ١٤ .

وقد جعل الله تعالى مصير البشر واحدا ، وهو الموت إذ لا بد أن تلقى كل نفس أجلها ، ولا بد أن يفنى البشر جميعهم ، ولا بد أن يبعثوا في الآخرة ليحاسبوا على أعمالهم ، ويجازوا عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كل يوفى أجره على عمله دون محاباة ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ آل عمران: ١٨٥ ، وقال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ لقمان: ٢٨ .

وقد بنى الإسلام عالميته هذه على أساس أن البشر وحدة واحدة بأصل التكوين ، قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

(١٤٦) رواه أحمد ، المسند 411/5.

ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ البقرة: ٢١٣ ؛ وإذا كانت الغرائز والاتجاهات سببا في فرقة الناس واختلافهم ؛ فإن الإسلام هو دين الوحدانية وجامع غايات الرسالات ولبها ؛ لذا دعاهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم إلى ما يوحدهم بعد فرقتهم ، ويهديهم إلى الحق بعد ضلالهم ، و يضمهم جميعا في وحدة إنسانية شاملة ، تتبع رسالة إلهية واحدة ، وشريعة كاملة عادلة(١٤٧).

3.وحدة الدعوة :

جاء خطاب الإسلام عاما للناس جميعا ، يخاطبهم بالتكليف والأمر والنهي بوصفهم الإنساني الواحد الذي لا يعرف التمييز بينهم ، فهو يخاطبهم على أنهم عباد الله تعالى ، وأنهم مكلفون بعبادته سبحانه وحده ، قال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٨ ، وهذا التكليف بما احتوى عليه من تشريع رحمة للعالمين ، وهداية للناس كافة ؛ ليس تشريعا لجنس خاص من البشر ، أو لإقليم معين من الأرض ؛ بل هو للإنسان من حيث هو إنسان ، أبيضا كان أم أسود ، عربيا كان أم أعجميا ، في الشرق كان أم الغرب (١٤٨) ، فقد جعل الله الإسلام آخر الأديان السماوية نزولا ، وجعل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم آخر لبنة في صرح النبوة ؛ وجعل رسالته خاتم الرسائل ، وآخر أدوارها ، وآخر الخطوات في إكمال الدين الذي رضيه الله تعالى لخلقه ؛ لذلك قال تعالى في آخر آية نزلت من القرآن الكريم (١٤٩) :﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة: ٣.

لقد استطاع الإسلام أن يوحد الشعوب التي انتشر فيها ، ويصوغها صياغة فريدة على الأخوة في هذا الدين ، فكان هذا من أبرز مقوماته ، وتميزه على غيره من الأديان ، يقول (لارنس) : (إن الأخوة التي أعلنها الإسلام ، كانت أمرا واقعا ، وشيئا طريفا لا عهد للشعوب الشرقية به ، إننا نشك في أن مسيحيي سوريا كانوا يعاملون مسيحيي إيران معاملة الأخوة بالأخوة ، كما أن مسلمي الشام يعاملون إخوانهم في الدين من الإيرانيين ، ويعتبرونهم أسرة واحدة) (١٥٠) ؛ بل كانت هذه الأخوة سببا في جذب الناس إلى

---

(١٤٧) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة /46..

(١٤٨)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /147 .

(١٤٩) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة /42،39.

(151) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي/43.

(١٥٠) رواه أبو داود في الأدب ، باب في التفاخر بالأحساب .

اعتناق الإسلام ، وانتشاره في الآفاق ، يقول المستشرق الفرنسي (هانوتو) (لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرا في الآفاق ... فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمرا وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل على اعتناق دين سواه)(١٥١).

٥.وحدة القيم والحقوق :

إن الإيمان بالله الواحد ولد احترام القيم والالتزام بالحقوق ، ورسخ حق المساواة بين البشر أفرادا وجماعات وأمما ، ودفع النفس المؤمنة إلى إقامة العدل بين الناس الذي أمر الله به (١٥٢) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الأعراف: ٢٩ ، فالإسلام لم يكتف بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس ؛ بل أمر بالكف عن أذية الناس بحيث يأمن كل فرد على دمه وماله ، قال صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم) (١٥٣)، ودعا إلى إقامة العلاقات بين الناس على أساس التعاون والتراحم والعفو عن المسيئ ، والصفح الجميل عنه ، قال تعالى :﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ المائدة: ٢ ، وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٩ ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ الحجر: ٨٥

وجاء الإسلام بتشريعات ملائمة للفطرة ، وملبية لكل تطلعات الإنسان نحو الخير والحق والعدل والإخاء والحرية والمساواة وسائر القيم الرفيعة ، يقول الكاتب الفرنسي (مارسيل كابي) : (حمل القرآن للناس باسم الإيمان الثابت على وجه الإطلاق أصول العدالة والنظام الاجتماعي ، الذي يخضع الفرد لمراعاة آداب الاجتماع ، ويفرض على الجماعات حماية الأفراد ، وهو بهذا الأسلوب يوافق في جواهر مبادئه أحدث القواعد الاجتماعية العصرية ... وقد نظم حدود حياة كل فرد وحياة المجموع) (١٥٤) ،

---

(١٥٢) نحو إنسانية سعيدة لمحمد المبارك /99-101 .

(١٥٣) رواه الترمذي في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، رقم 2627، 17/5.

(١٥٤)المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية لعمر عودة الخطيب /192 .

فقد (حث الإسلام على التعارف والتعاون والعمل الإنساني المشترك دون أن يجعل للاختلاف في الجنس واللغة واللون أي أثر في المس بهذا الهدف الذي يعود بالنفع العام على البشرية جميعا ... وقرر المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، ورفض كل أسباب التفاوت والتفاضل التي كانت سائدة في الجاهلية ، وهي أسباب لا وزن لها ولا قيمة ولا اعتبار ، مادام أصل الإنسانية المشترك واحدا من حيث خلق كل إنسان من تراب ثم من نطفة) (١٥٥) ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فاطر: ١١ ، لقد كان لممارسة هذه القيم وإمتاع الإنسان بحقوقه الأساسية أثر بليغ في فضح فساد الفلسفات والأديان التي استساغت العنصرية واستمرأت الطبقية ، وكان له تأثير بليغ في نفوس أبناء الطبقات المحرومة ، يقول جواهر لآل نهرو رئيس وزراء الهند السابق : (إن دخول الإسلام كان له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ، ويعيشون فيها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيرا عميقا ، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حَرَّم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية (١٥٦).

مفهوم الروابط البشرية :

تمثل الروابط البشرية حالة التواصل الفطرية والمكتسبة بين الأفراد والجماعات ، وما ينشأ عنها من حقوق وواجبات وعلاقات أدبية من تواد وتراحم وغيرها ، هذه الروابط يقوم عليها بنيان المجتمعات ، وتربط أفرادها بعضهم ببعض(١٥٧).

وقد قرر الإسلام مجموعة من المباديء التي تدعم هذه الروابط ، وتقويها ، من أهمها : الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس والحرية والوفاء بالعهود والمواثيق والتعاون على البر والتسامح مع الآخر ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٠ ، وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا

---

(١٥٥)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /150 .

(١٥٦)الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي/43.

(١٥٧)المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة /121 .

تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ المائدة: ٢ ، كما بنى الإسلام علاقة المجتمع الإسلامي بغيره على أساس السلم(١٥٨) ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ البقرة: ٢٠٨ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ النساء: ٩٠؛ لأنه في بيئة السلم تقوى العلاقات الاجتماعية ، وتنمو الصلات الحميمية بين الناس ، ويشعرون بقيمتها وآثارها النافعة .

الروابط البشرية :

تربط البشر بعضهم ببعض روابط عدة ، من أبرزها :

1. رابطة وحدة الأصل : إن الإسلام ساوى بين الناس في أصل الخلق ، فقرر نشأتهم من نفس واحدة ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾ الأنعام: ٩٨، وأوضح أن ما يكون بينهم من اختلاف في اللغة واللون لا يمنح أحدا مكانة رفيعة ، ولا قربا من الله تعالى ؛ بل هو آية من آيات الله ، وأثر من آثار البيئة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢ ، وأنه إذا كان ثمة فرق في الانتماء إلى شعب أو قبيلة فإن الله جعل ذلك للتعارف والتآلف ؛ لا للتناحر والاختلاف والتفاخر(١٥٩)، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣.

2. رابطة الأسرة والقرابة : إن ارتباط الإنسان بأفراد أسرته أبا أو أما أو زوجة أو أولادا أو أقاربا وأرحاما هو ارتباط فطري ، وعلاقة غرزية بين الناس ، يقرها الإسلام ، ويأمر بها ، قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ النساء: ٣٦ ، وقال تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ الأنفال: ٧٥ ، تنشأ عنها حقوق البر بالوالدين ولو كانا مشركين ؛ فإن الله تعالى أوصى الإنسان عموما بالإحسان إلى والديه

---

(١٥٨)معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان /223 .

(١٥٩) دعوة الإسلام لسيد سابق/ 142 .

وإطاعتهما ما لم يأمراه بالشرك ، قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ العنكبوت: ٨ ، كما أقر الرسول صلى الله عليه وسلم صلة الوالدين و تجنب كل ما يؤدي إلى عقوقهما ، أو يفضي إلى قطيعة رحم ، ففي الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، قالت : (قلت : يا رسول الله ! إن أمي قدمت علي ، وهي راغبة (أي مشركة) أفأصلها ؟ قال : نعم) (١٦٠) ، ومع قوة هذه الرابطة في نفس الإنسان ، وتعلقه بها ، وحبه إياها ، وتفضيلها على غيرها إ لا إنها لا تقدم على رابطة الإيمان التي يتعين أن تكون غاية عليا لتواصل المؤمن وعلاقته بغيره ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٢٤ .

3. رابطة الدين : إن غاية الإسلام من رابطة الدين تحرير البشرية كلها من عبودية الأهواء ، والارتفاع بها عن أوضار الحقد وشوائب العصبيات ؛ لتصوغ علاقتهم الإنسانية صياغة فريدة ، قوامها الدين الحنيف ، ولحمتها التناصح والتآزر ، وجوهرها الإخلاص وسلامة النفس ، وقد كان لهذه الرابطة أثرها في رد الناس جميعا إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ، وإيقاظ ما في قلوبهم من شعور القربى والرحمة ، وفي بناء علاقاتهم فيما بينهم خالصة من الشوائب ، مفعمة بأعمق الود وأنبل المشاعر (١٦١)، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١ ، فالمتآخون على أساس هذه الرابطة أقرب رحما من وشائج النسب ، وأقوى ارتباطا من روابط الدم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الحجرات: ١٠.

لقد ربطت هذه الأخوة قلوب المتآخين برباط لا ينفصم ؛ لأنها فوق المنافع والمطامع والعصبيات والأهواء ، وأقام الإسلام بها الموازين الفاصلة بين الولاء والبراء دون اعتبار لمقاييس العصبية والعنصرية التي مزقت شمل الناس ، وصنفتهم إلى طوائف وطبقات ، وفي ذلك يقول سبحانه مذكرا بهذه الأخوة التي

---

(١٦٠)رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة ، رقم 1003 ، 2/696 .

(١٦١)المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية لعمر عودة الخطيب /206 .

جمعتهم بعد تفرق ، ووحدتهم بعد تمزق ، وجعلت منهم إخوانا متآلفين : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ آل عمران: ١٠٣ .

4.رابطة العهد والميثاق : لما كانت علاقة السلم هي الأصل في العلاقات الإنسانية ، وهي ضمان تحقيق الأمن والسلامة للشعوب والأمم ودفع الظلم عن المستضعفين فإن العهود التي تُكَون هذه الرابطة، وتقويها يجب احترامها إذا كانت قائمة على العدل والإنصاف واحترام الآخرين والاعتراف بحقوقهم ، فقد كانت عهود الرسول صلى الله عليه وسلم عهودا عادلة ، يعطي فيها بمقدار ما يأخذ ، وكانت على قدم المساواة مع كل من كان يعاهده(١٦٢) ، وحرم الإسلام نقض العهد بعد إبرامه لأنه يقطع رابطة التواصل بين الناس ، ويفضي إلى العداوة بينهم والقتال معهم ، وتفويت كل المصالح الناشئة عن حالة الأمن والسلم بين الطرفين ، وهي ما وصفه القرآن الكريم بالخسران في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ البقرة: ٢٧ .

وفي مقدمة من يجب الوفاء لهم بالعهد أهل الذمة الذين يقيمون في المجتمع الإسلامي ، ولهم حق المواطنة ، أو المستأمنون الذين يقيمون فيه بصفة مؤقتة ، فقد أقر لهم الإسلام دينهم إذا كانوا من أهل الكتاب أو لهم شبهة كتاب ، ومنع إكراههم في الدخول في الإسلام ، وأعفاهم من الأحكام والحدود فيما لا يحرمونه ، وأثبت لهم من الحقوق ما للمسلمين ، وأوجب على الدولة الإسلامية حمايتهم وإنصافهم ، وعقوبة الاعتداء عليهم ، وأمر بحسن معاملتهم (١٦٣) وتمكين المستأمن منهم سماع كلام الله تعالى ، وتأمينه حتى يبلغ مأمنه ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ البقرة: ، وقال صلى الله عليه وسلم : ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة))(4) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ﴾ التوبة: ٦، وقال صلى الله عليه وسلم : (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس

---

(١٦٢)المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة /204 .

(١٦٣)حقوق الإنسان ، لعلي وافي ، ص 21 .

(4) رواه البخاري برقم (3166) كتاب الجزية والموادعة . وابن ماجة برقم (2686) كتاب الديات .

فأنا حجيجه يوم القيامة)(١٦٤) ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما وهو أمير على مصر (إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك) (١٦٥).

وكفلت الدولة الإسلامية رعاياها دون تمييز فللذمي حق في بيت المال كما للمسلم ؛ فتجب كفالته إذا احتاج وكان عاجزاً عن العمل ، ويدل على ذلك ما كتبه عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى عامله في البصرة عدي بن أرطاة : (وانظر من قبلك من أهل الذمة من قد كبرت سنه وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه) (١٦٦) ، وكذلك المعاملة مع من كان خارج المجتمع وفق الميثاق ؛ فإنه يجب الوفاء به حتى لو حال ذلك دون نصرة أخ في الدين ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ ﴾ الأنفال: ٧٢ .

إن تواصل المسلمين مع غيرهم ممن يخالفونهم في الدين على أساس هذه الرابطة التي تجسد معنى الأخوة الإنسانية ، وتحفظ المودة والسلام بين المجتمعات البشرية ، وتقيمها على أساس من العدل والإنصاف الذي يضمن لها البقاء والدوام ، ويحميها من العداوة والتشرذم – هو ما أمر الله به ، وهو أقرب للتقوى ، وأحب سبحانه من عباده المؤمنين القيام به ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ المائدة: ٨ .

---

(١٦٤)رواه أبو داود برقم (3052) كتاب الخراج والإمارة والفيء .

(١٦٥)الخراج ، لأبي يوسف ، ص 144 .

(١٦٦)الأموال ، لأبي عبيد ، ص 45 .

القضية التاسعة : القومية والعنصرية

تعد القومية والعنصرية من أهم النزعات الاجتماعية التي ربطت الإنسان منذ القدم بجماعته ، بحيث اعتز بالانتماء إليها ، وحمايتها ، والذب عنها بنفسه وماله ، وأخلص الولاء لها ، والخضوع لمبادئها وتقاليدها دون قيد أو شرط(١٦٧) ، و تبعها تبعية مطلقة دون إعمال لعقل أو قيمة من القيم ، وهي وإن كانت ربطت الإنسان في المجتمعات بعشيرته أو قبيلته أو قومه ، أو من يلتقي معهم على مصالح معينة إلا أنها من أشد النزعات التي أثارت الكراهية والبغضاء بين الناس ، وأهدرت حقوق الإنسان ، وصادرت كرامته وحريته ، وحرمته من العلاقات الإنسانية الكريمة القائمة على المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية ، والعدل بينهم ، والتعاون بينهم فيما يحقق الخير للجميع ، ويُمَكِن من حياة آمنة مطمئنة(١٦٨).

مفهوم القومية والعنصرية :

1– في اللغة :

أ –القومية : من القوم ، وهم الجماعة من الناس ، تجمعهم جامعة يقومون لها ، وقوم الرجل عصبته ، وهم أقاربه من أبيه ، أو قومه الذين يتعصبون له ، وينصرونه(١٦٩) .

ب–العنصرية :من العنصر ، وهو الأصل والحسب ، والعصبية تعني تعصب المرء أو الجماعة للجنس(١٧٠).

2– في الاصطلاح : هي شعور قوي لدى جماعة بالانتماء إلى آصرة القوم أو العنصر ، والاعتزاز بها ، ينشأ عنه ولاء وارتباط يتحكم في عقول أفراد هذه الجماعة وسلوكهم ؛ بحيث يصبحوا يدا واحدة على

---

(١٦٧) محاضرات في الثقافة الإسلامية لأحمد محمد جمال /349 .

(١٦٨) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /11 .

(١٦٩) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة /604 ، 768.

(١٧٠)المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة /631 .

من سواهم ، ينتصرون لبعضهم ، ويسالمون عليها غيرهم ويعادونهم (١٧١)، ويبنون عليها آراءهم وأفكارهم ومواقفهم ونظام حياتهم .

تاريخ القومية والعنصرية :

عرفت المجتمعات البشرية ألوانا من السلوكيات التي احتقرت الإنسان وامتهنته ، نشأت عن عقائد ضالة ، ومذاهب فاسدة ، وأنظمة اجتماعية منحرفة ، فقد كان اليونان يقسمون المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة في الحقوق المدنية ، يونان ، وهم : سكان مدينتي أثينا وإسبارطة ، ولهم جميع الحقوق المدنية ، وموالي ليس لهم حق في كثير من الحقوق ، ورقيق محرومون من كل الحقوق ، كما أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية ، زودوا بقوى العقل والإرادة على حين خلقت الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية(١٧٢) ، واعتز الرومان بأرومتهم ، ورأوا أنهم أرقى أهل الأرض عنصرا ، وأنهم أعظمهم مدنية وثقافة ، وكانوا يلقبون الشعوب الخاضعة لهم بالبرابرة (١٧٣) ، وكان مبدؤهم يقوم على تقديس الشعب الروماني ، وأن الشعوب الأخرى لا تستحق أن تحكم نفسها بنفسها ، وحسبها خدمة العنصر الروماني الرفيع ، وليس لها أن تنال أكثر مما يقدم لها من الأكل الذي يقيم صلبها(١٧٤) ، ويحفظ حياتها .

واعتقد الأكاسرة ملوك فارس أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكانت الرعية تنظر إليهم على أنهم آلهة ، يعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا ، كما كان المجتمع الفارسي طبقيا يصنف الناس على أساس النسب والحرف ، بين كل طبقة وأخرى هوة واسعة ، لا تصل بينهما صلة ، وعلى كل فرد أن يقنع بمركزه الذي منحه إياه نسبه ، فليس له أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلق لها ، وكان أهل فارس يقدسون قوميتهم ، ويرون لها فضلا على سائر الأجناس والأمم ، وأنهم خصوا بمواهب ومنح لم يشاركهم فيها أحد ، وكانوا ينظرون إلى غيرهم من الأمم نظرة ازدراء وامتهان (١٧٥) ، كما خضع المجتمع الهندي

---

(١٧١) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان /137 .

(١٧٢)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /27 .

(١٧٣)الإسلام والمشكلة العنصرية لعبد الحميد العبادي/13 .

(١٧٤)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي /66-67 .

(١٧٥)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي /49-52 .

آلاف السنين لنظام اجتماعي لم يعرف التاريخ أشد قسوة منه على الإنسان ، يرتكز على قاعدة المحافظة على السلالة الآرية ونجابتها ، مكونا تفاوتا طبقيا بين أفراد المجتمع الواحد ، متنوعا إلى أربع طبقات ، هي:

أ –البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين ، ويعتقد أنهم خلقوا من فم الإله .

ب –الكشتر : وهم الجند ورجال الحرب ، ويعتقد أنهم خلقوا من ساعد الإله .

ت –الويش : وهم أهل الصناعة والتجارة والزراعة ، ويعتقد أنهم خلقوا من فخذ الإله .

ث –الشودر : وهم الطبقة الدنيا ، يعملون في خدمة الطبقات السابقة ، ويعتقد أنهم خلقوا من قدم الإله(١٧٦) .

وقد منح هذا النظام الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية طبقة البراهمة امتيازات عجيبة ، فقد جعلتهم صفوة الآلهة ، وملوك الخلق ، وسادة الأرض ، في حين أهانت طبقة الشودر (المنبوذين) ، فلا يحق لهم السكن مع بقية الطبقات في مساكن لائقة ، مما اضطرهم إلى السكن بعيدا عن هذه الطبقات ، وفي مساكن هي في غاية الحقارة والضعة ، كما أن هذا النظام حرمهم من التعليم ، ومنعهم من دخول المعابد(١٧٧) .

وزعم اليهود أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة (١٧٨)، وأن ما عداهم من البشر ليسوا إلا كالحيوانات ، وإنما خلقوا على صفتهم حتى لا يتوحشون من خدمتهم ، وجاءت الحركة الصهيونية لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم ، وهي نظرة ازدراء وكراهية ، وتتضح هذه النظرة في استعلائهم عنصريا ، والزراية بغيرهم ممن يسمونهم : (الجوييم) أي الأميين(١٧٩)، جاء في البروتوكول الحادي عشر : (إن عقل الأمم – لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة – غير قادر على تحليل أي شيء ، فضلا عن التكهن بما قد يؤدي عليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع في ضوء معين . وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الأميين ، وهو الذي يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله ، وأننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية حين تقارن بالعقل الفطري البهيمي عند الأميين)(١٨٠).

---

(١٧٦)المستشرقون لنجيب عفيفي/504 .

(١٧٧)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /50،48 .

(١٧٨)الكنز المرصود في قواعد التلمود ترجمة يوسف نصر الله/11–18 .

(١٧٩)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /57،52.

(١٨٠)الخطر اليهودي – بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسي /177 .

كما أن الكتاب المقدس في النصرانية رسم صورة عريضة لحدود طاعة ما يعرف بالعبيد لسادتهم واستجلاب رضاهم ، مما يوحي بنظرته للنظام الطبقي المتبع آنذاك ، ويدل كذلك على أن النصرانية اصطبغت بصبغة الرومان ؛ لذا أصاب القاضي عبد الجبار الهمذاني لما قال : (إن الروم ما تنصرت ، ولا أجابت المسيح ؛ بل النصارى تروّمت ، وارتدت عن دين المسيح)(١٨١) ، ومما يؤكد استمراءها للعنصرية والطبقية قول القديس (توما الأكويني) : (إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء)(١٨٢).

وعرف العرب في الجاهلية فكرة القومية باسم العصبية ؛ فكانت القبيلة أو العشيرة هي الوحدة السياسية و الاجتماعية التي يعيش أفرادها في إطارها ، وتحت ظلها ، ويخلصون الولاء لها ، ويخضعون لتقاليدها ، يعبر عن ذلك منطق الشاعر الجاهلي :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وفي أوروبا لم تكتمل القومية إلا في القرن الثامن عشر الميلادي ، بعد أن فقدت الكنيسة الكاثولكية نفوذها على إثر قيام حركة مارتن لوثر الإصلاحية وظهور الكنيسة البروتستانتية المتحررة ؛ حيث تشكلت فكرة القومية على أساس المصالح القومية دون اعتبار للدين في تشريعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ثم تطورت القومية إلى اتحادات سياسية وعسكرية واقتصادية (١٨٣) تجمع الأجناس الأوروبية ، وظهرت اليوم آثار العنصرية في استعلاء الجنس الأبيض على الأسود في صورة مختفية وراء السياسات العنصرية وأساليب التعامل المهينة والاتفاقيات المجحفة في حق اقتصاد الشعوب الملونة والسوداء ، وفي حالة التخلف العلمي والفقر والإهمال وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة التي لا تزال تعاني منها هذه الشعوب ، وتذوق مرارتها على مرأى ومسمع العالم بأسره .

في ضوء هذه التصورات والفلسفات المتراكمة على مر العصور تطلع الإنسان إلى منهج يعالج هذه المشكلة التي عانى فيها من ظلم أخيه الإنسان واستعلائه عليه وحرمانه من حقوقه الأساسية ، ومصادرته لحريته ، واستغلاله لثرواته دون وجه حق أو لأسباب مكتسبة .

تعريف العصبية :

---

(١٨١)تثبيت دلائل النبوة ، تحقيق عبد الكريم عثمان 168/1.

(١٨٢)حقائق الإسلام وأباطيل خصومه/201 .

(١٨٣)محاضرات في الثقافة الإسلامية لأحمد محمد جمال /350 .

أ– في اللغة : من عَصِب القوم به عصبا : أي اجتمعوا حوله ، وتعني : المحاماة والمدافعة عمن يلزمك أمره ، وتلزمه لغرض(١٨٤).

ب– في الاصطلاح : هي رابطة استعلاء تقوم على التعصب الطبقي والعنصري والتمايز بين الناس على أساس اللون أو النسب أو الثروة أو الجاه ، تؤدي إلى إهدار كرامة المخالف والزراية به وسلبه حقوقه الإنسانية(١٨٥) أو بعضها . وبهذا المعنى تكون الطبقية والعنصرية من أنواع العصبية التي عرفتها المجتمعات البشرية .

أنواع العصبية :

أ– عصبية اللون : تقوم على أساس افتراض وجود دم أزرق نبيل ، وآخر دم أحمر وضيع، وعلى تقسيم الناس إلى أقسام حسب لون بشرتهم بيضاء كانت أو سوداء ، يستغل بها الأبيض أخاه الأسود ، ويمتهنه للون بشرته ، يقول (شارل دي مونتيسكيو) في كتابه روح القوانين : (وما شعوب أفريقية إلا جماعات سوداء البشرة ، من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها ، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا – أو على الأخص روحا طيبة – في جسد حالك السواد) (١٨٦) .

ولا ريب أنه عندما يسود في مجتمع ما منطق احتقار الإنسان على أساس لونه ، ويتم تصنيف أفراده في طبقات متفاوتة بسببه فإن ذلك يدل على جهل هذا المجتمع وشقائه ، يقول مصطفى السباعي : (إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ، ولون على لون هي الحضارة التي يسعد بها الإنسان العاقل الكريم ، وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة ، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ، ويمتهن فيها الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ، ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء)(١٨٧).

ب–عصبية الطبقة : تنشأ روابط اجتماعية بين الناس كرابطة الأسرة ، أو رابطة المهنة أو رابطة السكنى بين أهل الحي أو القرية ، وتقوم روابط أخرى على أساس التقارب في المراتب والمنازل ، فقد كانت قريش

---

(١٨٤) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة /603.

(١٨٥) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /32 .

(١٨٦) نقلا عن كتاب : فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم لزكريا هاشم زكريا/112 .

(١٨٧) من روائع حضارتنا /14 .

قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقا وتقاليد محددة خلاف سائر العرب ، وفي المجتمع الفارسي تفاوتت الطبقات على اعتبار النسب والحرف ، كما تمايزت في الهند الطبقات الأربع في الوظائف ، وانقسم المجتمع الروماني إلى طبقات ، هي طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة العامة الذين هم غالب الشعب(١٨٨).

ت–عصبية القوم والعنصر : تقوم على تفضيل قومية على غيرها ، وعنصر من العناصر البشرية على آخر ، فيُزعَم أن هذه القومية أرقى ، وأن هذا العنصر أزكى وأنقى ، وقد عبر (أرسطو) عن النزعة العنصرية التي حكمت المجتمع اليوناني ، وصاغها في نظرية (بيولوجية اجتماعية) لما قرر (أن الله خلق فصيلتين من الناس ، فصيلة زودها بالعقل والإرادة ، وهي فصيلة اليونان وقد فطرها على التقويم الكامل ؛ لتكون خليفته في أرضه ، وسيدة على سائر خلقه ، وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم ، وهؤلاء هم البرابرة ، أي ما عدا اليونان من بني آدم ، وقد فطرهم على هذا التقويم الناقص ؛ ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة) (١٨٩) ، ويلتقي الفكر الاستعماري مع النزعة العنصرية التي تزعم تفوق الجنس الآري وبخاصة الفرع (النورديكي) في الصفات العقلية والروحية ، وأنه النبع الأوحد للحضارة ، وإلى هذا الجنس ينحدر المفكرون والمخترعون والعلماء الذين حملوا مشعل الحضارة ، وقد صدرت مؤلفات لدعم هذه الفكرة ، منها كتاب (عدم المساواة بين الأجناس للكونت جوزيف جوبينو) ، وكتاب (تاريخ اللغات السامية لأرنست رنان) الذي قرر فيه أن الجنس السامي دون الجنس الآري(١٩٠) .

موقف الإسلام من عصبية القومية والعنصرية:

لا يرفض الإسلام العصبية القائمة على الحق ، والانتصار للعدل والفضيلة ، كما أنه لا يعترض على الانتماء إلى القبيلة لإثبات نسب ، أو إلى قومية معينة كوحدة اجتماعية ، يشاركها مشاعرها ، ويذب عن حقوقها ومكارمها ، ولا ينفي الإسلام كذلك حق الإنسان في حب وطنه وعشيرته والحنين إليهم ، مرتقيا به من التعلق بالأرض والموقع الجغرافي لذاتهما إلى القيمة والمكانة والحرمة ؛ وقارنا لها بالمباديء والقيم التي يؤمن بها من يقيم على هذا الوطن ، لقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في خطابه لمكة ، وهو مهاجر منها : (ما أطيبك من بلد ، وأحبك إلي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك

---

(١٨٨) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان 129–135 .

(١٨٩)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /37–38 .

(١٩٠)نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /74 .

)(١٩١) ، إن هذا المعنى يجلي موقف الفطرة في محبته صلى الله عليه وسلم لبلده مكة ، معللا هجرته منه رغم تعلقه به ومحبته له بإخراج كفار قريش له ، ومنعهم إياه من إقامة مباديء الإسلام فيه .

ولا يلغي الإسلام فضل قومية بعينها ؛ لكنه يضع منها ما كان سائدا في المجتمعات من الفخر بالأنساب والأحساب ، والتعالي بسببها على الناس وأعراقهم ، فالعرب فضلهم الله تعالى على غيرهم بخصيصتين تميزوا بهما عن بقية الأجناس البشرية ، وذلك من قبيل الاصطفاء كما يذكر ابن تيمية ، هما (العلم النافع ، والعمل الصالح ، فالعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم ، وتمام قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة ، ... فهم أفهم من غيرهم ، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعاني / جمعا وفرقا ..... ، وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق ، وهي الغرائز المخلوقة في النفس ، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم ، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأخلاق المحمودة – وهم كانوا قبل الإسلام على طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعلة.... لم يكن عندهم علم منزل من السماء ، ولا شريعة موروثة عن نبي ، ولا هم أيضا مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب ونحوهما ، وإنما علمهم ما سمحت به قرائحهم : من الشعر والخطب ، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ، وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب . فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى – وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات والظلمات الكفرية التي قد أحالت قلوبهم عن فطرتهم . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم ، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة ، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزل الله إليهم .... وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم) (١٩٢) . وإذا تأملنا هذا الكلام تبين أن تفضيل العرب لا يعود إلى جنسهم فقط ؛ وإنما يعود إلى ما اصطفاهم به الله تعالى من صفات ، وما تهيأ لهم من علم نافع وعمل صالح أهلهم لحمل الرسالة ، والقيام بوظيفة التبليغ .

كما لا يتنكر الإسلام الأنساب ، فالناس معادن مختلفة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) (١٩٣)؛ ولكنه يحرم التفاخر بها ، والتباهي بمكارم الآباء ؛ فيجعل من كان تقيا غير نسيب أكرم عنده من نسيب فاجر ، إذ يقول الله

---

(١٩١) رواه الترمذي في كتاب المناقب ، باب في فضل مكة ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، رقم 3926 ، 723/5.

(١٩٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية/160–161.

(١٩٣) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب خيار الناس ، رقم 2526،4/1958.

تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)(١٩٤) .

ثم إن العصبية في نظر الإسلام نوعان : الأولى عصبية ممدوحة ، وهي محاماة الإنسان عن قومه إذا كانوا على حق ، وهي مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : (خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم)(١٩٥)، وقوله صلى الله عليه وسلم : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما . قال : يا رسول الله ! هذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ . قال : تأخذ فوق يديه)(١٩٦) . والأخرى عصبية مذمومة ، وهي التي كانت معروفة في الجاهلية ، تقوم على الفخر بالأنساب ، وعَدِّ مآثر الآباء ، وقد وصفها القرآن الكريم بحمية الجاهلية في قوله تعالى : ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ الفتح: ٢٦ ، وبين الرسول صلى الله عليه وسلم سبب ذمها ، وهو محاماة الإنسان عن قومه مع أنهم على ظلم ؛ فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، قال : (قلت : يا رسول الله ما العصبية ؟ قال : أن تعين قومك على الظلم)(١٩٧).

وقد أبطل الإسلام هذه العصبية لما فيها من تكبر على الناس ، واستطالة عليهم بنخوة القبيلة والقرابة ، وأقام مكانها عصبية الانتصار للحق والعدل والإخوة في الدين ، جاعلا معيار التفاضل بين الناس العمل الصالح والعلم النافع ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة (١٩٨) الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، أنتم بني آدم ، وآدم من تراب) (١٩٩) ، فصارت المكانة المشروعة مشاعة يرتقي إليها كل من كان أهلا لها من أهل العلم والعمل مهما كان نسبه وعنصره ولونه، ومهما كانت طبقته ؛ لذا كانت المساواة بين الأجناس من مآثر الإسلام التي امتاز بها ، يقول المؤرخ الفيلسوف (Toyandee) في كتابه : (الحضارة في الامتحان) : (إن القضاء على الفوارق

---

(١٩٤) رواه أبوداود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، رقم 3643 ، 317/3.

(١٩٥)رواه أبو داود في الأدب ، باب في العصبية ، رقم 331/5120 . ، وقال أبوداود : في سنده أيوب بن سويد ، وهو ضعيف .

(١٩٦) رواه البخاري في كتاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما ، رقم 2444.

(١٩٧)رواه أبو داود في الأدب ، باب في العصبية ، رقم 5119 ، 331/4.

(١٩٨) عُبِّيَّة الجاهلية : أي الكبر . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 169/2.

(١٩٩) رواه أبو داود في الأدب ، باب في التفاخر بالأحساب .

السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالي .... فإن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الإنساني بخير ورحمة ، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها أنها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية)(٢٠٠).

(٢٠٠) نقلا عن كتاب :الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي/43.

القضية العاشرة : الدين والعلم

هل هناك قضية بين الدين والعلم يمكن أن تبحث ؟ هل العلاقة التي بين الدين والعلم هي ما بين كفتي الميزان من توازن وتراجح ؛ فإذا خفت كفة أحدهما ثقلت كفة الآخر ! بحيث إذا ساد الدين انحسر ظل العلم ، واستولى الجهل على الناس ، وانتشرت الترهات والأباطيل ، وإذا ساد العلم انكمش ظل الدين ، وضمر وجوده ، وانزلق الناس في الشهوات والمصالح الذاتية فلا يجدون ما يقودهم إلى الحق والعدل ، ويحملهم على رعاية الفضيلة وانتهاج سبلها .

إن التاريخ يشهد بمساهمة الأديان في بناء الحياة الإنسانية ، والتأثير في عقول الناس وقلوبهم وإقامة المجتمعات والحضارات ، وفي غرس الفضائل والأخلاق ، وتكوين العادات الطيبة ، وتنظيم الحياة الإنسانية، وضبط حدود الحقوق والواجبات بين الناس ، فقد سجل التاريخ ذلك في حياة الفراعنة واليونان والرومان والهنود والصينيين والبابليين والأشوريين ، وهم يدينون بديانات وضعية فكيف بالأمم التي تدين بديانات سماوية بعث الرسل بها لخير البشرية جمعاء ، إنه لا يمكن لعاقل عرف وظيفة الدين ومكانته في حياة البشر أن ينكر حقيقة سلطانه على النفوس ، واقتداره على قيادة الناس ، وإلزامهم كلمة التقوى ؛ إذ كيف للإنسان أن يسير عُطلا من المرشد الذي يُبَصِره بمعالم الطريق ، ويهديه سواء السبيل ؟ هل حقا أن الدين في أي مجتمع هو علة وقوع الإنسان في الضعف والهوان ؟ ، وهو علة تأخر المجتمعات وانحطاطها ، وأن ذلك يتبين بمقارنتها بما آل إليه حال المجتمعات المادية الملحدة من تقدم وتطور ، وثم سؤال أخير .. أحقا أن النهضة العلمية الحديثة والمدنية التي نشأت وتطورت في المجتمعات المادية الملحدة قامت منفصلة عن الدين ، بعيدة عن مؤثراته ؟[٢٠١] . هذا ما يمكن الإجابة عليه من خلال بحث هذه القضية .

تعريف الدين وأهميته للإنسان والمجتمع:

1- تعريف الدين : في اللغة يعني الذل والطاعة والخضوع والانقياد لوضع معين ، هذا الوضع إما أن يكون إلهيا أو غير إلهي ، وفي الاصطلاح هناك من يرى أن الدين : (وضع إلهي يرشد إلى الحق في

---

(٢٠١) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب/44-48.

الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات) (٢٠٢)، وهناك من ينتقد هذا التعريف ، ويرى أن الدين أعم من أن يكون خاصا بالدين السماوي ؛ وأنه يشمل كل الأديان ، فهو (قوة سماوية أو وثنية ، مادية أو معنوية تُعبَد وتُسيَّد وتَطَاع)(٢٠٣).

ولا ريب أن التعريف الثاني أصح ، فهو المنسجم مع معنى الدين في القرآن الكريم ، فقد استعمل القرآن الكريم هذه المفردة مع الوثنية ديانة أهل مكة ، وهي غير سماوية ، و استعملها مع الإسلام وهو الدين السماوي الإلهي الحق في قوله تعالى : (لكم دينكم ولي دين) (٢٠٤) ووصف الله الإسلام بأنه الدين الحق الذي أظهره الله على جميع الأديان الباطلة سماوية كانت أم وضعية ، قال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)(٢٠٥).

2 – أهمية الدين للإنسان والمجتمع :

الأديان ذات حضور مؤثر في حياة الإنسان ، وفي بناء المجتمع مهما كان هذا الدين من الصحة أو البطلان ، وما من مجتمع إلا وقد تدين ، فالتدين تأتي أهميته للإنسان والمجتمع من النواحي التالية :

أ –أنه فطرة خلق عليها الإنسان ، يترع إليها ليشبع حاجة الروح إلى الإيمان بالمعبود ، ويستمد منها عقيدته ومفاهيمه للوجود والحياة ، ويضبط به أمور حياته .

ب أنه ضرورة حيوية لاستكمال وجود الإنسان ، واستقرار حياته ، وانتظام معيشته ، يستمد منه القوة الدافعة إلى العمل ، ويتزود منه الصبر على مكاره الحياة ، والثبات في وجه تياراتها الهائجة ، وعواصفها القوية(٢٠٦) .

ج – أنه ضرورة اجتماعية يتم عن طريقها التأكيد على الإيمان بالقيم والفضائل ، والالتزام بالأحكام والقوانين التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة ؛ فإنه إذا قُدِّر لمجتمع أن يضرب بسهم في مجال الالتزام بالمبادئ

---

(٢٠٢) دراز ، محمد بن عبد الله ، 1394هـ ، الدين /33 .

(٢٠٣) عطية ، أحمد ، دائرة المعارف الحديثة / 213 .

(٢٠٤) سورة الكافرون /6 .

(٢٠٥) سورة الفتح / 28 .

(٢٠٦) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبدالكريم الخطيب /44 .

والقيم فلن يجد قوة أقوى من الدين تحمل أفراده على التمسك بزمامها ، وترد الشارد منهم ، وتتجه بهم جميعا نحو الكمال والمثالية(٢٠٧) .

تعريف العلم وأهميته :

1- تعريف العلم : في اللغة يعني اليقين والمعرفة والإدراك ، وهو نقيض الجهل(٢٠٨) ، وهو كما قال الراغب الأصفهاني : (إدراك الشيء بحقيقته) (٢٠٩) أو هو : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناتج عن دليل ؛ فإن لم يكن كذلك كان ظنا أو جهلا أو تقليدا (٢١٠)ويطلق على الصفة الراسخة التي يدرك بها الإنسان الكليات والجزئيات(٢١١) ، ويقصد به : مجموعة المعارف والحقائق التي وصلت إلى الإنسان عن طريق الوحي ، أو توصل إليها من خلال تفكيره وملاحظاته وتجاربه طوال فترة حياته (٢١٢) ، وقد وضح ابن خلدون هذين النوعين من العلوم وبين أنهما صنفان : صنف طبيعي للإنسان يقف عليه بفكره ، ويهتدي إليه بمداركه ، وصنف نقلي ، يستند إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، لا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول (٢١٣) .

إن العلم وفق هذين المعنيين تراث متراكم من المعارف والحقائق والمعلومات ، يعنى بدراسة الجزئيات ، ويتجه نحو العمق في المسائل والاهتمام بالتخصص العلمي ، و تنقسم هذه العلوم إلى قسمين : الأول علوم دينية وإنسانية خاصة بأمة بعينها كعلوم الدين والأدب والتاريخ والاجتماع ، والآخر علوم حسية تجريبية تطبيقية مشاعة ساهمت في إنشائها وتراكمها كل الأمم .

2- أهمية العلم :

العلم ضروري للإنسان والمجتمع ، وتأتي أهميته من النواحي التالية :

---

(٢٠٧) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبدالكريم الخطيب /38 .

(٢٠٨) لسان العرب لابن منظور / .

(٢٠٩) .

(٢١٠) نهاية السول المشهور بشرح الأسنوي على البيضاوي /7 .

(٢١١) الجرجاني ، علي بن محمد عام 1403هـ ، التعريفات / 155 .

(٢١٢) عليان ، شوكت محمد ، عام 1415هـ ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر /19 .

(٢١٣) المقدمة /400 – 401 ، دار الشعب .

أ. أنه وسيلة التحرر من الجهل والخرافة والوهم ، فالعلم يطارد هذه الآفات كما يطارد النور الظلام ، ولا يمكن أن يستقيم حال إنسان من غير علم ينير له طريق حياته ، ويهديه إلى الخير ، كما أن المجتمع لا يمكن أن يستقر ويتطور إذا لم يعتمد على العلم النافع ، ويأخذ بأسباب الحضارة والتطور .

ب. أنه سبيل الخلوص من العبودية لغير الله تعالى ، وطريق معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه ، وأداة إصلاح أمر الإنسان في الدنيا والآخرة ؛ فإن التكليف مناط بالعقل ، وهو وسيلة فهم الخطاب الشرعي وإدراك مراد الشارع ومقاصده .

ت. أنه أداة استعمال العقل والحواس للوصول إلى المعرفة ، وأداة تدبر القرآن لإصلاح النفس ، وأداة التفكر في ملكوت السموات والأرض لإدراك سنن الله تعالى ، وأداة التعرف على أمور الدنيا عن طريق الملاحظة والتأمل لإصلاح حال الإنسان وبيئته .

وإذا كان العلم المؤدي إلى معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه يستند على الوحي فإن العلم الطبيعي والتجريبي يستند على البرهان واليقين ، وقد أحيل الإنسان فيه إلى عقله واجتهاده ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنتم أعلم بشؤون دنياكم)(٢١٤)، وغاية ما يهدف إليه كما يقول (برتراند رسل) هو محاولة اكتشاف حقائق معينة عن العالم ومن ثم القوانين التي تصل الحقائق ببعضها بحيث يمكن التنبؤ بحوادث مستقبلية ، ويتم هذا عن طريق الملاحظة والتفكير الذي يستند عليهما ، وتأتي أهمية هذا العلم من ناحية قدرته على توظيف المعرفة لإنتاج وسائل الراحة والرفاه التي كانت مستحيلة ، أو ذات كلفة عالية في حقبة ما قبل هذا العلم(٢١٥) .

وحدة الدين والعلم :

الإنسان بحاجة إلى الدين والعلم ، فهما يهيئان له الحياة الكريمة ، ويمنحانه حقوقه ، وينظمان حياته وعلاقاته بغيره ، ويستحثانه على الفهم والتفكير والعمل ، ويرشدانه إلى ما فيه مصلحته ؛ لذا كان من الضروري أن يكون الدين والعلم في صحبة مستمرة ، وألفة دائمة ، وأن يكون العلم وما يتوصل إليه من نتائج داعما لحقائق الدين ، ومصدقا لما جاء به ، وأن يكون الدين بمعتقداته وأحكامه وشرائعه شاحذا للعقول ، ومُبَصِّرا للقلوب(٢١٦) ، وهاديا لها إلى منهج الحق المبين والنفع للناس أجمعين .

---

(٢١٤) رواه مسلم

(٢١٥) الصراع بين العلم والدين /3.

(٢١٦) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس وآخرين /61.

إن الإنسان بحاجة إلى الدين والعلم لا يغنيه أحدهما عن الآخر ، فالعلم لا يغني عن الدين ، فقد يخيل لأحد أن الإنسان بالعلم يستطيع أن يتجه في حياته نحو الخير فلا يضل الطريق ، ولا يشقى ، إن ذلك محض إدعاء ؛ لا تقوم له حجة من واقع الحياة ، ولا من شواهد التاريخ ، فما كان العلم وحده يوما عاصما للإنسان من الزلل الخلقي ، ولا قادرا على إقامة وازع في نفسه يردعه عن اتباع الهوى ؛ خلافا للدين الذي يزجر صاحبه عن ارتكاب الإثم ، وإذا ارتكبه متعمدا جعله يشعر بالخطأ والندم ، إنه لا شيء يقوم مقام الدين في إقامة الوازع القوي اليقظ الذي يقوم دائما بين الإنسان وبين نوازع السوء والضلال ، فهل يا ترى يقوم العلم الطبيعي والتجريبي هذا المقام ؟ ؛ فيبعث العلم بقانون الجاذبية أو الذرة أو بمعلومة علمية أخرى لدى الإنسان الإحساس بالإثم والشعور بالواجب ما يبعثه الدين(٢١٧) ، كما أنه لا شيء يقوم مقام العقل في إثبات الإيمان والقطع بصحته وصدقه ؛ وهذا يعني أن الإيمان يمازج العقل ، ويقيمه دليلا هاديا إليه ، بحيث لا يبقى أثر لتوهم أن الإيمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل ، وأن العقل وظيفته القبول المحض(٢١٨) ؛ فليس له حق الحكم على أدلة الدين ، واستنباط الأحكام من مظانها بحسب قدرته من الفهم والإدراك .

إن ثمة أمر آخر لا بد منه لتحقيق الانسجام التام بين الدين والعلم وهو صحة الجانبين ؛ جانب الدين بحيث يكون قائما على مصدر موثوق ، خاليا من الهوى والخرافة والباطل ، وجانب العلم بحيث يكون قائما على دليل صحيح من النقل أو العقل سالم من الظن والتخمين والكذب ، وكان من فضائل الإسلام التي تميز بها بين الأديان أنه ارتكز على العلم ، وحث أتباعه على البحث عن حقائقه ، وفتح لهم أبواب التفكر في هذا الخلق الواسع المليء بالسنن الكونية والقوانين العلمية ، يقول العقاد : (فضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، ويحث على ولوجها والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن ، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم ، وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن الطلب ، وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر ؛ لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم)(٢١٩) .

لقد دفع الإسلام الإنسان نحو التعرف على أسرار الكون ونواميسه ، والتوسع في الكشوف العلمية فكان في ذلك انتصار لقضية الدين ؛ إذ لا خوف على الإسلام من البحث العلمي ؛ فالحقيقة لا تخشى

---

(٢١٧) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب /38-39.

(٢١٨) الإنسان في القرآن لعباس العقاد /403.

(٢١٩) الفلسفة القرآنية لعباس العقاد / 21 .

البحث ، والإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد يوصلان إلى نفس النتائج التي يقررها(٢٢٠) ، وكان هذا الاتجاه أيضا داعما لقوة الإنسان التي تزداد صلابة كلما استزاد من معين الإيمان بالله تعالى (فليس معدن الدين من معدن الضعف في الإنسان ، وليس الإنسان المؤمن هو الواهي الهزيل ، وربما كان الأصح والأولى في التقدير والتحقيق أن عظم العقيدة في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون والتدبر في أسراره وخفاياه) (٢٢١).

إن علماء الغرب على كثرة بحوثهم التجريبية ، وما وصلوا إليه من حقائق علمية انعكس أثرها في القوة المادية ووفرة الإنتاج الصناعي لم يحققوا السعادة والاستقرار النفسي لشعوبهم ، وذلك بسبب إلحادهم ، ورفضهم للإيمان ، إذ على حد قول الأستاذ (كامل فلامريون) (ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد والمؤلم الذي يجرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة) (٢٢٢) ، وعلى الرغم من منهج الإلحاد الذي سلكه علماء الغرب أخيرا فإن النهضة العلمية التي شهدتها أوروبا في العصر الحديث ما هي إلا نتيجة جذوة انقدحت شرارتها من الدين ، واستمدت حرارتها من حماسة (مارتن لوثر) الدينية ، الرائد الأول للتحرر الفكري الحديث في أوروبا ، الذي ثار على الجمود الفكري ، وعلى القيود التي فرضتها الكنيسة على المفكرين ، وألبستها لبوس الدين فكان لثورته أثرها العميق في تحرير عقول الناس من وصاية الكنيسة وتسلطها على نفوسهم ، و (مارتن لوثر) أحد رجال الكنيسة ، ومن كبار علمائها ، لكن هذا الانتصار الذي حققه رجل الدين الإصلاحي في أوروبا ما لبث أن تحول إلى مغنم بأيدي ثلة من العلماء العقليين الذين خرجوا من الدين ، وناصبوه العداء ، وأعلنوا أنه عقيم ، لا يلد إلا مواتا ، فاستغشوا ثياب الإلحاد ، واتخذوا من العلم المنفصل عن الدين نسبا (٢٢٣) ، ومن المؤسف أن هؤلاء لم يكن لديهم قدرة على التمييز بين الدين ومحتكريه ، بحيث يفرقون بها بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسؤولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل ؛ فقد عيل صبرهم ، ووقعوا تحت تأثير ردة الفعل حتى مقتوا كل ما يتصل بالكنيسة من عقيدة وعلم وآداب ، وعادوا النصرانية أولا والدين ثانيا ، واستحالت العلاقة بين الدين والعلم إلى حرب ضروس ، وعداوة لا تهدأ ، انتصر فيها العلم العقلي على الكنيسة ، وحطم هؤلاء العلماء سلاسل التقليد الديني ، وزيفوا ما كانت تؤمن به من نظريات فلكية

---

(٢٢٠) العيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني/100 .

(٢٢١) الله لعباس العقاد / 18.

(٢٢٢) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب /52053 .

(٢٢٣) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب /50 .

وجغرافية ، وما اشتملت عليه كتبهم من آراء بشرية منتقدين لها في صرامة وصراحة (٢٢٤) ، وعلى المنهج العقلي والطبيعي نشأت حضارة مادية بعيدة عن الوحي ، حققت ما حققت لأتباعها من التقدم المادي ، أقامت ناطحات السحاب ، وأجرت مراكب الفضاء ، وغمرت الأسواق بألوان الصناعات ، وجلبت للناس الرفه والترف... لكنها عجزت على قوتها أن تُدْخِل على مشاعر الناس السكينةَ والطمأنينة ، وأن تقيم علائق الناس على المودة والرحمة ، بل أنها أثارت في نفوسهم القلق والحيرة ، وسكبت في قلوبهم الأثرة والأنانية ، ودفعتهم إلى العدوان والتسلط على الناس (٢٢٥) ، تلك ضريبة العلم المادي إذا نشأ بعيدا عن الدين .

الصراع بين الدين والعلم في أوروبا :

حدث صراع مرير في القرون الوسطى بين رجال الكنيسة الكاثولكية في روما ورجال العلم التجريبي نتيجة أبحاثهم واكتشافاتهم التي بينت بطلان بعض الآراء في المسائل الفلكية والجغرافية التي أضفت الكنيسة عليها صفة الدين ، وجعلتها جزءا من النصوص المقدسة التي يمنع نقضها أو نقدها أو مناقشتها ، ورأت أن في نتائج هذه الأبحاث والكشوف جرأة على الكنيسة التي كانت تمسك بزمام السلطة على كافة أصقاع أوروبا ، وهدما لتعاليمها ؛ لذا نظرت إلى هذه الحركة العلمية القائمة على العقل بحذر وتوجس خوفا على سلطانها ومكانتها ، لكن الصراع ما لبث أن تفاقم بين الطرفين منعكسا سلبا على العلاقة بين الدين والعلم ، فقد قامت الكنيسة بهجمة شرسة على العلماء ، فكفرتهم وبَدَّعتهم واستحلت دماءهم ، وأنشأت لمعاقبتهم محاكم التفتيش ، فعلى سبيل المثال حكمت محكمة التفتيش في مدة لا تزيد على ثمانية عشر عاما من 1481م – 1499م على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بالحرق أحياء فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق فشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت(٢٢٦) ، ومن العلماء الذين اضطهدتهم الكنيسة (غاليلو) بسبب قوله بأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن هناك كواكب سيارة تزيد عن السبعة التي ذكرت في الكتب المقدسة ، فقد اعتبروا ذلك نوعا من الإلحاد ، فسجن سنة 1615م بناء على حكم صدر من محكمة التفتيش في روما ، مما اضطره إلى التراجع عن آرائه ، وأقسر على أن يعلن توبته وهو جاث على ركبتيه أمام (البابا أوربان الثاني) قائلا :

---

(٢٢٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن المودودي /192 .

(٢٢٥) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب /51 .

(٢٢٦) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية لمحمد عبده / 36

ألعن واحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور (٢٢٧) ، وأفلت (كوبرنيكس) من قبضة الكنيسة بتدارك الموت له عقوبة على قوله بكروية الأرض ، وطاردت الكنيسة (برونو) لتقريره كروية الأرض ودورانها إلا أنه قبض عليه بالبندقية، وسجن بروما ، ثم حرق حيا(٢٢٨).

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الصراع وهذه العداوة بين رجال الدين والعلم في أوروبا ما يلي :

١. تعسف الكنيسة وتسلطها على رجال العلم والفكر : هذا التعسف كان امتدادا طبيعيا لما كانت تمارسه الكنيسة من طغيان على الناس ، فقد حاسبت الناس على معتقدات قلوبهم ، وعلى أفكارهم وآرائهم ، واحتكرت العلم في مجامعها ، وهيمنت على الفكر البشري بحجة أنها تمتلك الحقيقة العلمية حتى في مجال البحث المبني على الحس والتجربة ، وبهذا الصنيع أقحمت الكنيسة نفسها في متاهات كانت غنية عن دخولها ، وفتحت على نفسها بابا من النقد العلمي اللاذع (٢٢٩) ، ومما ساعد على سلوك هذا المنهج أن الكنيسة لم توفق برجال لديهم القدرة على التوفيق بين النصوص المقدسة وبين آراء العلماء ونظرياتهم(٢٣٠) ، ولم تهتد إلى مراجعة هذه النصوص ، وتهذيبها مما خالطها من آراء بشرية ، لم تفعل ذلك ظنا منها أنها قادرة على كبت ما يخالفها استنادا على ما كانت تملكه من سلطة وطغيان ، فكان ذلك سببا في تفاقم الخلاف ، ومناداة الطرف الآخر بعزل الكنيسة عن الحياة ، وإقامتها على المنطق العقلي والتفكير الحر (حتى أصبح الاعتقاد بأن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر) (٢٣١).

٢. تبني الكنيسة لبعض النظريات الفلكية والآراء الجغرافية : هذا التبني أدى إلى تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم الكنيسة التي جعلتها عقائد إلهية ، تدخل في صلب الدين وصميمه ، وعدت الكفر بها كفرا بالوحي والدين (٢٣٢) ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل فرضت على الناس قبول ما تبنته من آراء وأفكار ونظريات ، ومنعت نقدها أو تصحيحها ، أو تبني أي قول يخالفها ، لذا كما ذكر (جوستاف جرونيباوم) (لم يكن بين يدي أوساط الناس في العالم

---

(٢٢٧) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية لمحمد عبده / 79-80.

(٢٢٨) موقف الإسلام والكنيسة من العلم للدكتور عبد الله المشوخي / 140.

(٢٢٩) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / 147.

(٢٣٠) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس وآخرين / 63.

(٢٣١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب /89-125.

(٢٣٢) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / 147.

المسيحي اللاتيني إلا معلومات خالية من الضبط والدقة) (٢٣٣) ، فكان من أشهر ما تبنته الكنيسة واحتدم حوله الخلاف القول بأن الأرض عبارة عن معين منبسط تحيط به أربعة بحار ، وأن الأرض ثابتة ، ورفض القول بجاذبية الأرض لأن فيه انتزاعا لقوة التأثير من الله عز وجل إلى قوة مادية الخ(٢٣٤).

٣. تعنت الطرفين في التمسك بآرائهما : أدى تمسك الكنيسة ببعض الآراء ، وإنكارها بعض الحقائق العلمية إلى الخصومة ، كما أدى تسرع بعض العلماء إلى إنكار بعض الحقائق العلمية التي قررها الدين وتسخيفها ، ولا ريب أن ذلك من التكذيب الذي لم يحط الإنسان بعلمه ، أو لم يأت تأويله وكشفه(٢٣٥) ، فكان من الأحرى أن يحترم كل طرف الآخر ، وأن يتم استيعاب الجديد من العلم بعيدا عن التعصب للرأي أو الانسياق مع الهوى .

٤. اختلاف المنهج العلمي : أدى المنهج العلمي الجديد في أوربا القائم على التجربة والبرهان العملي إلى نتائج سلبية ، دفعت الباحثين على اعتبار الغيبيات من الخرافة ؛ إذ لا يؤمنون إلا بالمحسوس والمشاهد ، فالله تعالى والملائكة والجن عندهم أشباح خرافية ، وأهوال اليوم الآخر أوهام زائفة ، وقصص الماضيين من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أساطير ما لم تكشفها الحفريات والآثار (٢٣٦) إلى غير ذلك ، فكان في هذا المنهج هدم لتعاليم الأديان وليس للنصرانية فحسب ، ونقض لما يؤمن به التجريبيون من مرور الطاقة الكهربائية بالأسلاك المعدنية ، وهي لا ترى ، ومن الجاذبية إلى الأرض وهي لا ترى ، ومن الروح التي تحفظ الحياة للجسد وهي لا ترى .

إن حقيقة هذا الصراع لم تكن بين الدين بصبغته الإلهية النقية ، وإنما بصبغته المحرفة التي كانت عليها النصرانية في تلك الفترة من الزمن ، وأن ما حققه العلم من انتصار كان في المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم ، إن الحق من الطرفين هو الذي انتصر فلو كانت تعاليم الكنيسة حقا خالصا ، والعلم بمنهجه الجديد في أوروبا يقينا مجردا لما حدث هذا الصراع ، وإنه من

---

(٢٣٣) حضارة الإسلام ، ترجمة عبدالعزيز جاويد/69.

(٢٣٤) موقف الإسلام والكنيسة من العلم للدكتور عبد الله المشوخي/ 132،140.

(٢٣٥) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس/66.

(٢٣٦) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس/67.

المؤسف أن جناية رجال الدين على الحقيقة العلمية كانت أشنع من جناية أنصار المنهج الحسي التجريبي عليها ، وأن كلا الطرفين كان مسؤولا عن النتائج المؤسفة لهذا الصراع(٢٣٧) .

موقف الإسلام من العلم :

الإسلام هو دين العلم ، فقد كانت أول آيات كتابه الكريم نزولا هي أمر بالقراءة ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) كما أن الله تعالى أقسم فيه بالقلم تعظيما له ، قال تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وفي هذا دلالة عظيمة على احتفاء الإسلام بالقراءة والكتابة لما لهما من أهمية بالغة في تقييد العلم والمعرفة وضبطهما ، كما أن الله رفع درجات العلماء تقديرا لمكانتهم ، وتعظيما لشأنهم ؛ يقول سبحانه : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وما ذاك إلا لكون العلم نعمة إلهية يخص الله بها من يشاء من عباده ، قال تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء) (٢٣٨) .

ومصدر العلم هو الله تعالى ، قال تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) وقال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال تعالى : (وفوق كل ذي علم عليم) وقال تعالى : (وعلم الإنسان ما لم يعلم) إلا أن طريق الإنسان إلى هذا العلم بحسبه ، فصنف منه يصل إليه عن طريق الوحي ، وهو ما دل عليه قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) وقوله تعالى : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك) ، والصنف الآخر يصل إليه عن طريق العقل بالتفكير والملاحظة والتأمل والرصد والتجربة والسير في الأرض والنظر في خلق الله للبحث عن سننه الكونية ، قال تعالى : (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ، وقال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

والعلم الصحيح هو ما كان مبنيا على مصادر صحيحة أو تفكير صحيح أو تجارب ثابتة بعيدا عن الجهل والظن والكذب ، قال تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) و قال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم) و قال تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

---

(٢٣٧) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / 146.

(٢٣٨) رواه الترمذي وأبوداود .

وعموما فإن العلم في الإسلام فريضة واجبة ، يتقرب بها إلى الله تعالى ، وطريق من طرق العبادة يوصل إلى الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٢٣٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم) (٢٤٠) ، وبناء على هذا الحكم اعتنى علماء المسلمين بعلوم الدين بيانا وتوضيحا واستنباطا مستندين في فهمهم على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واشتغلوا بها بحثا ودراسة وتعليما ، فأنشأوا المدارس ، وأقاموا حوانيت الوراقين التي كانت أسواقا للعلماء ومناظراتهم ، وشيدوا المكتبات لخدمة العلم ، وتيسير الاطلاع على ما ألف من علوم .

ولم يكن الاهتمام مقصورا على علوم الدين بل شمل العلوم التي تعتمد على الحس والتجريب ، فإن الحس والتجربة يعدان أساسين لهذا الصنف من العلوم ؛ فقد أكد ابن حزم في كتابه (التقريب في حدود المنطق (أن الحس أصل من أصول العلم ، وأن ابن تيمية بين في كتابه نقد المنطق أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين) (٢٤١) ، فالمنهج التجريبي وليد الفكر الإسلامي وليس من ابتكار الفكر الغربي ، يقول (بريفولت) في كتابه (بناء الإنسانية) : (ليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية) (٢٤٢) .

وكان من مظاهر الاعتماد على الحس والتجريب في العلم الطبيعي عناية علماء المسلمين بعلم الفلك ومعرفة طوالع النجوم ، وذلك لمعرفة منازل الهلال وأوقات الصلاة والصيام والحج ، ولهذا الغرض أنشئت المدرسة الفلكية ببغداد ، ويعد (البتَّاني) أحد عشرين عالما فلكيا في العالم ، وألف البيروني كتاب (الاستيعاب في وضع الاسطرلاب) ، وقد استطاع المسلمون دراسة حركة الشمس وانحرافها ، ومعرفة الانحراف القمري الثالث الذي عد اكتشافا جديدا ، كما اعتنى علماء المسلمين بالرحلات الجغرافية ، فكتبوا عن المسالك وطرق القوافل والبريد ، ووصفوا الجبال والبحار والأنهار ، ورسم (الأدريسي) خريطة اشتملت على أماكن لم تعرف إلا من قريب . كما اهتم علماء المسلمين بعلوم الرياضيات فكان (أبو بكر الخوارزمي) أول من ألف في علم الجبر ، له كتاب (الجبر والمقابلة) ، وألف ابن الهيثم كتاب (

---

(٢٣٩) رواه ابن ماجه .

(٢٤٠) رواه الترمذي وأبوداود .

(٢٤١) تجديد الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال /148 .

(٢٤٢) تجديد الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال /149 .

تربيع الدائرة) وكتاب (الأشكال الهلالية) ، وألف البيروني كتاب (استخراج الأوطار) ، وفي علم الفيزياء وضع (ابن الهيثم) كتابه (البصريات) الذي أسسه على دراسة تجريبية ، وفي علم الكيمياء كان المسلمون أول من استعمل طرق التصعيد والتبلور والتذويب والتصفية لاستخراج المواد أو مزجها ، وأول من صنع المراهم والدهانات ، وأول من حضر الحوامض مثل تحضير زيت الزاج (حامض الكبريتيك) ، وفي علم الطب بلغ علماء المسلمين درجة من التفوق والريادة ، فقد بقيت كتبهم تدرس في جامعات الغرب إلى عهد قريب ، ومن مشاهير أطباء المسلمين (الرازي) وله كتاب (الحاوي) تحدث فيه عن صناعة الطب ، وكتاب (المنصوري) الذي اشتمل على مباحث التشريح والأدوية والسموم والجراحة ، ومن عباقرة الطب (ابن سينا) الذي ألف كتاب (القانون) الذي كان محط إعجاب في جميع الأوساط العلمية إلى اليوم ، وقد ترجم إلى عدة لغات ، ومن الأطباء المشهورين : (جابر بن حيان) و (الزهراوي) و(ابن النفيس) وغيرهم ، وبرز المسلمون كذلك في علم الصيدلة ، فقاموا بفن المستحضرات كتحضير الأشربة واللعوق واللزقات ، وألف (ابن جزلة) كتاب (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان) جمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير(٢٤٣) .

إن انجازات علماء المسلمين في العلوم التجريبية لا يمكن حصرها ؛ فقد تمكنوا من تطوير العلوم التي ورثوها من الأمم الأخرى كعلوم الفلك والطب ؛ بل أنهم ابتكروا علوما جديدة كعلمي الجبر والكيمياء ، واعترف لهم بهذا الفضل علماء أوروبا الذين لا يزالون يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم ما يستفيدون منه في تحسين أمورهم وزيادة معرفتهم فهذا (داربر) في كتابه (التنازع بين العلم والدين) يشيد بعلماء المسلمين وأنهم كانوا متبعين في أبحاثهم الأسلوب العملي التجريبي بعد أن تحققوا من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ، وأن الوصول إلى الحقيقة في هذه العلوم لا يكون إلا بمشاهدة الحوادث ذاتها ؛ لذا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والعمل الحسي ؛ فإنهم كانوا يعدون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات لعلم المنطق ، وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والإيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار بأنهم اهتدوا إلى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . إن هذا المنهج هو الذي قاد المسلمين لأن يكونوا أول واضعي علم الكيمياء ، وأول من اكتشف آلات التقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ ، وهو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطربلات (آلات قياس أبعاد الكواكب) ، وبعثهم على استخدام الميزان في العلوم الكيمائية الخ ،

---

(٢٤٣) دراسات في الحضارة الإسلامية للدكتور إبراهيم الشريف/ 186–187 ، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق /209–216، ودراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس وآخرين 55–57 .

وهو الذي جعلهم يترقون في الهندسة وحساب المثلثات ، وهَمَّ بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الحسابية الهندية ، إن ذلك غيضا من فيض ، يصعب حصره والإلمام به، وكان لنتائج هذه العلوم أثر جلي في تطوير فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن ، وانتشار المعامل والصنائع كنسج الصوف والحرير والقطن وإذابة المعادن وسبكها وتهذيبها(٢٤٤) ، وتشييد المباني والقلاع والقصور وزخرفتها وتهويتها وتدفئتها بطريقة هندسية رائعة.

(٢٤٤) الإسلام في عصر العلم لحمد فريد وجدي 445-454 .

فهرس المصادر :

١. الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة

٢. الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين : ط 6 ، عام 1403هـ ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٣. أجنحة المكر الثلاثة لعبد الرحمن الميداني

٤. الإرهاب الدولي لمحمد عزيز شكري ، طبعة 1991م

٥. الإرهاب بين التجريم والمشروعية لإمام حسانين خليل

٦. الإرهاب في العالمين العربي والغربي لأحمد يوسف التل

٧. أزمة العصر لمحمد محمد حسين ، ط2 ، عام 1405هـ ، مؤسسة الرسالة ببيروت .

٨. الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي

٩. الإسلام والرد على منتقديه لمحمد عبده

١٠. الإسلام والعولمة لمجموعة من المفكرين

١١. الإعلام في مناقب الإسلام لأبي الحسن محمد العامري

١٢. الأعلام للزركلي

١٣. أهداف التغريب لأنور الجندي

١٤. بحث : العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها للدكتور عبد الخالق عبد الله ، مجلة عالم الفكر ، عدد اكتوبر 1999م

١٥. بحث : ظاهرة العولمة الواقع والآفاق للدكتور الحبيب الجنحاني ، مجلة المعرفة عدد محرم 1420هـ

١٦. بيان مكة الصادر عن المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته / 16 المنعقدة من 21-1422/10/26هـ ، صحيفة اليوم ، السبت 1422/10/28هـ ، العدد 10438.

١٧. التبشير والاستعمار للخالدي

١٨. تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي لمحمد محيي الدين عوض ، نشر أكاديمية نايف العربية

١٩. تفسير ابن كثير

٢٠. تفسير أبي السعود .

٢١. التنصير والاستعمار لعمر فروخ ، و مصطفى خالدي

٢٢. حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري

٢٣. الحركة الأدبية والفكرية لابن عاشور

٢٤.حقوق المرأة للدكتور سعيد رمضان البوطي
٢٥.الحوار مع أهل الكتاب لخالد القاسم ، ط 1 عام 1414هـ ، دار المسلم بالرياض .
٢٦.الخصائص العامة للإسلام ليوسف القرضاوي ، ط 1 عام 1397هـ ، دار غريب بالقاهرة .
٢٧.دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة لصلاح العقاد
٢٨.الزحف إلى مكة : حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي لعبد الودود شلبي
٢٩.ظاهرة العولمة (الأوهام والحقائق) لمحيي محمد مسعد
٣٠.العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي لأنور الجندي
٣١.العولمة وعالم بلا هوية لمحمود المنير
٣٢.العولمية جريمة تذويب الأصالة ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، مجلة المعرفة عدد / 48 ، ربيع الأول عام 1420هـ، والثقافة العربية وتحديات العولمة ، مجلة شؤون اجتماعية عدد / 61 ، عام 1419هـ
٣٣.الغارة على العالم الإسلامي لشاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي
٣٤.الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود
٣٥.الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للدكتور عبد الستار سعيد ، دار الأنصار .
٣٦.الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي
٣٧.كشف الخفاء للعجلوني
٣٨.لسان العرب لابن منظور
٣٩.مؤامرة فصل الدين عن الدولة لمحمد كاظم حبيبي
٤٠.مجلة المنار المجلد 31
٤١.مستقبل الثقافة في مصر
٤٢.معجم الوسيط
٤٣.مقالة : إرهاب المقاومة للدكتور ماجد ياسين الحموي ، صحيفة الشرق الأوسط ، الأربعاء 1423/2/11هـ 24 إبريل 2002م
٤٤.مقالة : الأطروحة الأمريكية الترهيب بصدام الحضارات لصبحي محمد غندور ، مجلة المعرفة عدد محرم عام 1420هـ
٤٥.مقالة : العولمة في بعدها الثقافي للدكتور منصور زويد المطيري ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ

٤٦.مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ
٤٧.مقالة : ذراع جديدة لأخطبوط الغزو الفكري لعبد الناصر محمد مغنم ، مجلة المجتمع عدد / 1324 ، 1419/6/23هـ .
٤٨.مقالة : قراءة متأنية للتفجيرات الإجرامية لسعد عودة الردادي ، جريدة عكاظ في عدد الثلاثاء 19 ربيع الأول 1424هـ رقم 13415.
٤٩.ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي لإبراهيم عكاشة
٥٠.ملخص محاضرة بعنوان : موقف الإسلام من الإرهاب ، ألقيت في ندوة الإسلام وحوار الحضارات للدكتور صالح بن حميد ، صحيفة اليوم ، الثلاثاء 1423/1/5هـ 19مارس 2002م العدد / 10504.
٥١.منهاج السنة
٥٢.الموسوعة الميسرة ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٥٣.نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر ، ط 12 عام 1423هـ ، دار النفائس بعمان .
٥٤.نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور محمد اليحياوي
٥٥.الوقائع السرية في حياة لورنس العرب
٥٦.التفكير فريضة إسلامية لعباس العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ببيروت .
٥٧.